

من أفعال اللفّة إلى بلاغة الخطّاب السّياسي
تبسيط التداوليّة



د. بهاء الدين محمد مزيد

قسم دراسات الترجمة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة الإمارات العربية المتحدة

من أفعال النفاة إلى بلاغة الخطاب السياسي

تبسيط التداولية

د. بهاء الدين محمد مزيد

الكتاب: تبسيط التداولية

المؤلف: د. بهاء الدين محمد مزهد

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٠

رقم الإيداع: ١٣٧١٦ / ٢٠١٠

التسجيل الدولي: 3 · 042 · 493 · 977 · ISBN 978

النشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ قهضة الوسطى - حلفوظ - القاهرة

ت. الفاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤ (٠٢) - ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف: بسلام الشماغ

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كاتبة من الناشر

من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي

تبسيط التداولية

د. بهاء الدين محمد مزيد

قسم دراسات الترجمة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الإمارات العربية المتحدة

قسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة سوهاج



إلى ميرال و مريم و مروة،

اعتذاراً عن الانشغال والتقصير

وإلى اساتذتي،

عرفاناً وتقديراً ..

بهاء

المحتويات

١١	§ لما قبل: طرائق الترجمة ودرجاتها
١٤	- هذا الكتاب
١٨	§ ما هي التداولية؟
٢٠	- كيف تطورت؟
٢١	§ السياق
٢٤	- فإن داوود: مقدمة عن السياق
٣٥	- من ضرورات التلقي
٣٧	§ النحو الوظيفي
٤٠	§ المبدأ التعاوني
٤٧	§ التضمن
٥٠	§ ماذا نفعل بالكلمات؟
٥٧	§ التائب والقياس
٦٨	- كياسة لون لاين
٧٠	§ الإشارة
٧٥	- اللغة، ابن، تشير
٧٨	§ التداولية العامة
٨٠	§ التداولية المقارنة
٨٥	§ تحليل الخطاب ولغويات النص
٩٩	- اقتلص وما إليه
١٠١	- علاقات بين نصية
١٠٣	- بين المعظم والمتعلم

١٠٥	§ التحليل النقدي للخطاب
١١٥	- عن لغة الإعلام واستعارات شتى
١١٦	- حملة وصقر
١١٦	- الإسلام فضاء وصراط
١١٧	- استعارات منها ما ورد في القرآن الكريم
١١٨	- استعارات معاصرة
١٢١	§ تحليل الخطاب السياسي
١٢٦	- خصائص الخطاب السياسي
١٣٠	§ في العالم العربي
١٣٢	§ نصوص وتطبيقات
١٣٣	- دعاء
١٣٥	- بلاغة إسلامية
١٣٥	- خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع
١٣٩	- عن الإقناع في البلاغة الإسلامية
١٤٠	- خطابة سياسية إسلامية
١٤٢	- لدعاية في التراث الإسلامي
١٤٣	- من لصداء السيرة الذاتية
١٤٥	- خطاب الكرة
١٤٩	- عن خطاب الكرة
١٥٣	- نافذة على النافذة
١٥٩	- هولاء وتحبيب علي مقتطفات من خطاب سياسي
١٦٧	- نصوص بصرية
١٦٩	§ المراجع
١٨٠	§ المؤلف في مطور
١٨٢	§ شمس للنشر والإعلام

تحت الاستطرادات

١. وللتراجمة في النقل طريقان ١١
٢. وهذا كتاب ١٤
٣. أيها القارئ ١٦
٤. ما البلاغة؟ ٢١
٥. عن اللغويات النقدية ٣٧
٦. تخلص ٤٢
٧. العلم والأدب ٤٤
٨. إن لصاحب الحق مقالاً ٥٠
٩. دعكم الكلام أربع ٥٠
١٠. اللغة والبيسبول ٥١
١١. الإنشاء: بذور نظرية لفعال اللغة في البلاغة العربية (١) ٥٣
١٢. الإنشاء: بذور نظرية لفعال اللغة في البلاغة العربية (٢) ٥٥
١٣. صدق الخبر وكذبه ٥٦
١٤. لفعال لغوية سياسية ٥٦
١٥. فلو قد قل ما يجمعها كتاب ٥٩
١٦. الكلمة الطيبة ٦٦
١٧. بلاغة الصمت ٦٩
١٨. عن الالتفات في القرآن الكريم ٧٠
١٩. مثل: أوباما في القاهرة ٨٥
٢٠. مصطلح تحليل الخطاب ٨٦
٢١. والنص ٨٦
٢٢. مزالق ومحاذير ٩١
٢٣. الجنس الخطابي، لا الأكبي ٩٦
٢٤. مصطلح وترجمة ٩٨
٢٥. في نقد التحليل النقدي للخطاب ١٠٩
٢٦. ترجمة المربع الأيديولوجي ١١٤
٢٧. تحمين القبيح ونقيح الحسن ١٢٦
٢٨. إضفاء الشرعية وتجريد الآخرين منها ١٢٧

أما قبل : طرائق الترجمة ودرجاتها

وللترجمة في النقل طريقتان

"قال الصلاح الصفدي: وللترجمة في النقل طريقتان: أحدهما طريق يوحنا بن بطريق وابن قناعة الحمصي وغيرهما، وهو أن ينظر في كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية، وما تدل عليه من المعنى، فيأتي باللفظة مفردة من الكلمات العربية ترفعها في دلالة على ذلك المعنى فيثبتته وينقل إلى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه، وهذه الطريقة رديئة بوجهين: أحدهما أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات اليونانية، ولهذا وقع في خلال هذا التعريب كثير من الألفاظ اليونانية على حلقها، فثقي أن خواص التركيب والنسب الاستدسية لا تطبق نظيرها من لغة أخرى دقما، ويضا يقع الفشل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات، الطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن إسحق والجهوري وغيرهما، وهو أن يأتي جملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها، سواء سلوت لفظها لم خالفها، وهذا الطريق لجود ولهذا لم تحتج كتب حنين بن إسحق في تهذيب الألفي العلوم الرياضية لأنه لم يكن فهمها بها، بخلاف كتب قطب والمنطق والطبيعي والأدبي فأن الذي عربه منها لم يحتج في الإصلاح، فلما فطيس لقد هذه ثبت بن أسرة العرسي ومكنت المعطى والمتوسطات بينهما" (لبناء العمل: الكشكول). وقد قوبل هذا التصنيف بكثير من النقد لما فيه من تبسيط ولأن كثيرا من المحققين يستشهدون به نهلا على سيق العرب في التمييز بين الترجمة الحرفية والترجمة الوظيفية. ولهذا مقلد غير ما نحول هنا من تبسيط.

من الراسخ في دراسات الترجمة تفريق بين ترجمة حرفية literal، وترجمة حرة، أو وظيفية functional. في هذه القسمة ما فيها من تبسيط، لأن الترجمة الحرفية والوظيفية قد تجتمعان في نص مترجم واحد، وليس هناك ما يبرز الاحواز فمطلق في أي منهما، كما أن طرائق الترجمة تتجاوز هاتين الطريقتين. فيما يلي تفصيل هذه الطرائق تسميا على تصنيف روبنسون Robinson (٢٠٠٣، ص ١٢):

١. ترجمة حرفية literalism، وتضي نقل النص الأصلي إلى اللغة المترجم إليها حرفيا مع التضحية - التي تتشا عن عدم الكفاءة أو عن ضرورة - بجماليته وعناصره الوظيفية. لهذه الطريقة وجاهتها في فنصوص العلمية وبعض

النصوص الفقهية والدينية والوثائق والأوراق الرسمية.

٢. ترجمة تغريبية foreignism، وفيها يحتفظ النص لمترجم بغناصر الغربة في النص الأصلي. على سبيل التمثيل: هل تبقى "boyfriend" و "girlfriend" "صديق" و "صديقة"، أم تتحول إلى "زوج" و "زوجة" أو "زميل" و "زميلة" - من منطلق أن المفهوم الذي تعبر عنه المفردتان الإنجليزيتان لا يتماشى مع الثقافة العربية الإسلامية؟ يحدث هذا كذلك من العربية إلى الإنجليزية، فنجد من يترجم "الحج" مثلا إلى "Hajj"، ومن يترجمها إلى "pilgrimage". وقد وقع متشابهة، فمن يبقي على المفردة الإسلامية ويكتفي بتضيق الأبجدية ربما يقبل دخولها الثقافة الغربية. ومن يستبدل بها مفردة إنجليزية ربما يسمى إلى إضفاء روح ثقافته على المفردة العربية. هذا على سبيل التبسيط. لأن التغريب والتغريب لا يمكن لاختلافهما إلى لرقام، كما لا ينبغي الإصرار على الاتهام، لأن الاختيار ربما يحدث لمجرد الجهل بالبديل. سوف يجد التغريب من يدفع عنه من خلال الحديث عن ضرورة الأمانة في الترجمة، والارتباط الذي لا ينبغي أن ينقسم بين اللغة وثقافتها وتهافت الرقبة في زمن السماوات المفتوحة، وسوف يجد التغريب من يدفع عنه كذلك من خلال الحديث عن نمسية مفهوم الأمانة. وعن ضرورة الحفاظ على الهوية والقومية.

٣. ترجمة رشيقة fluency تحتفظ قدر استطاعتها بجماليات النص الأصلي، وتراعي ساليب اللغة المترجم إليها وتركيبها، ولو على حساب بعض الحقا. هذه التضحية - التي ربما تكون اضطرارية أو قسرية - تبرز استعارة "الجميلة الفخنة" les belles infideles في الحديث عن الترجمة (ومقادها أن الترجمة لا بد أن تنتهك النص الأصلي لكي تكون ترجمة جميلة). في الاستعارة بعض الحقيقة، لكن فيها كثيرا من التجني على للجماليات المفضليات، وعلى لترجمات التي تجتمع فيها الأمانة الطمينة مع رشاقة الأسلوب وجمال الصياغة.

٤. ترجمة تلخيصية **summary**، وفيها تلخيص فكل النص الأصلي. دون تشغل بلفظه. أو تراكيبه، أو أساليبه البلاغية. والخطر الداهم هنا هو ما نعين من سرقة فكل الآخرين دون الرجوع إلى مصادرها. لا عيب في التلخيص. إلا ما يشتمل لحيثاً من إقحام، أو حذف يشوه الأصل. أو يجمّله لحاجات في نفوس المترجمين. أو من يستخدمهم - إضافة إلى رد الفضل إلى غير أهله.

٥. تعليق على النص الأصلي **commentary**. لا يترجمه. ولا يترجم فكله. إلا للاستدلال أو إقامة الحجة. ولا عيب في التعليق إذا لم يحاسب النص الأصلي على ما لم يرد فيه، ولا قل به مؤلفه. حتى عند تعليق تبقى الامانة ضرورية لازمة.

٦. تلخيص وتعليق **summary and commentary**. حيث يجتمع تلخيص الأفكار مع مناقشتها والتعليق عليها، وهو ما يحدث عادة في الدراسات العليا ورسائل الماجستير والدكتوراه. ولا حاجة إلى تكرار الحديث عن المزدق والمضطر. لأن ما يجرّم التلخيص أو التعليق منفردين يجرّهما مجتمعين.

٧. اقتباس ومعالجة **adaptation**. ويعني وضع فكرة أو فكل النص الأصلي في قالب أو جنس خطابي مغاير. ومن ذلك ترجمة قصيدة إلى قصة قصيرة. أو ترجمة لوحة إلى مقالة. أو ترجمة مسرحية إلى قصيدة. ومن ذلك ما قلنا في الثقافة العربية من وضع قواعد النحو وأحكام التلاوة في قالب شعري حتى يتيسر حفظها واسترجاعها.

٨. تشفير **encryption**، ويعني ترجمة النص إلى شفرة سرية لا يفهمها إلا نخبة يجمعها الأمن أو النقصان، أو الميول والاهتمامات.

هذا الكتاب

وهذا كتاب

"وهذا كتاب موعظة وتعريف وتنفذ وتبهي. ورفق
عنه قبل أن تنفق على خذوه. وتتفكر في فصوله.
وتعتبر لخره بلوله. ومصرعه بمورده. وقد غطك
فيه بعض ما رأيت في أشغله من مزح لا تعرف
مغاه. ومن بطالة لم تطلع على غورها. ولم تتر لم
اجتليت. ولا لأي علة تكلفت. وأي شيء لريد بها.
ولأي جد لعنمت تلك الفهول. ولاي رخصة لجشمت
تلك البطالة! ولم تتر أن المزاح جد إذا لجشمت ليكون
علة للجد. وأن البطالة فقر ورزقة. فإ تكلفت لتلك
العقبة. ولما قال الخليل بن أحمد: لا يصل أحد من
علم النحو إلى ما يحتاج فيه. حتى ينظم ما لا يحتاج
إليه. قال أبو شعر: إذا كان لا يتوصل في ما يحتاج
إليه إلا بما لا يحتاج فيه. فقد صار ما لا يحتاج فيه
يحتاج إليه. وذلك مثل كتابنا هذا: لأنه إن حملنا
جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على من الحق.
وصعوبة الجد. وثقل العبثية. وحشية فوقها. لم
يصبر عليه مع طوله إلا من تجرد للطمع. وفهم
مغاه. وذاق من ثمرته. واستشعر قلبه من عزه.
ونال سروره على حسب ما يورث الطول من كد.
والكثرة من فسلة..." (الجلد: العمون. موقع
الورق. ص ١٢).

لعل من الملام أن نسوق هذه المقدمة (وليها بشرح
الجاحظ علة ما يحتويه كتابه من مزح) في مقام
التبرير. تبرير الكلام عن الترجمة في مقدمة تبسيط
التداولية. في مقدمة الجاحظ جملة لطفا ذهب مثلا.
وبن لم تكن قد فطت فهي جديرة أن تفعل. ألا وهي
"لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج فيه حتى
ينظم ما لا يحتاج فيه". أما تبرير الكلام عن الترجمة
في مقامنا فراهن فهو بين أن الترجمة في مغاه
الرحب تشمل ما يجد القارئ في هذا التبسيط من
تلخيص وتعقيب ومعالجة. هذا في ما فيه من ترجمة
بالمعنى الضيق للمصطلح.

ما علاقة كل ما سبق بما نحن
بصدده في هذا التبسيط؟ إذا
كانت القضية هي تقديم
التداولية للقارئ العربي. دون
دعاء السبق. لأن المقاربة
ليست الأولى. فلماذا لا نترجم
نصا من النصوص المؤسمة
في التداولية - كتاب لجون
سيرل أو لجون أومتن أو
لجيفري ليتش. على سبيل
المثال؟ الأجوبة يسيرة
وحاضرة: لأن نيا من هذه
قنصوص لا يحتوي كل
طروحات التداولية
ومفاهيمها وأدواتها. ولأن ما
في كل نص على حدة ربما لا
يليد القارئ في السياق
عربي - من تفاصيل.
واستطرادات. وإحالات إلى
سياقات غريبة. وهولمش
مرهقة. وغير ذلك. على أن
هذا لا ينبغي أن يكون مبررا

لمعرفة فكر الآخرين. من هنا، تؤثر المقاربة الراهنة ترجمة الأفكار الأساسية والمصطلحات وتعريفاتها وبعض الأمثلة، على سبيل التلخيص. مع تطويع تلك المصطلحات والتعريفات بما يناسب اللغة العربية، بما يضمن حداً فنياً من القبول، وإضافة أمثلة وتوضيحات قريبة من العقل العربي وتطبيقات وحالات في البلاغة العربية. على سبيل المعالجة والتأصيل، بما يناسب المقام والفكرة والمصطلح.

هذه التداولية، إذن، تبسيط مُخلّ مهما طال، ينطلق من كتابات أوستن Austin (١٩٦٢)، وجرايس Grice (١٩٧٥)، وسيرل Searle (١٩٧٥)، وليكوف Lakoff (١٩٧٣)، ولينش Leech (١٩٨٣)، وهالداي Halliday (١٩٨٥)، وغيرهم، ودراسات الخطاب عند دي بوجراند De Beaugrande، وفان ديك van Dijk، والتحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي عند الأخير وعند بول تشيلتون Chilton وشيفنر Schaffner، وغيرهم، لكنه لا يتوقف عندها. والغاية في كل ما يرد بعد هذه المقدمة هي التبسيط وتقديم بعض المفاهيم والنماذج والقواعد والأنواع القابلة للممارسة والتطبيق. لا تثريب على هذا التبسيط إذا أغفل المناسبات الفلسفية، وتفاصيل التفاصيل، والانتقادات، والانتقادات المضادة، والتعريفات، وجدل المصطلحات، وقضايا الحدود بين التخصصات، والنظريات والاتجاهات اللغوية، لأن هذا له مقامات أخرى. ولا تثريب على هذا التبسيط إذا وجد فيه ففارئ كثيراً من التصرف، لأن التصرف بما يضمن وصول الفكرة على حساب الترجمة الحرفية الكاملة هو بعض أدواته. غير أن التصرف لا يضي بحال من الأحوال أن ننسب إلى مؤلف ما لم يقل، إنما يعني أن نقرأ له بالفضل في ترسيخ الفكرة وتقديم المصطلح وتطوير النظرية أو النموذج، ثم ننطلق منه إلى التعريب والتوضيح والتمثيل، وإلى ما يناسب ذلك من نصوص البلاغة العربية ومفولاتها.

قد تبدو فصول هذا
تبسيط غير
مترابطة، لكنها ليست
كذلك. إن الفصول
التي يضمها هذا
كتاب هي
الموضوعات الكبرى
في تدولية، وما
ينصل بها من تحليل
الخطاب على وجه
الصوم، وتحليل
الخطاب السياسي
على وجه
الخصوص. يبدأ
تبسيط بمؤلفين: "ما
هي تدولية؟"
و"كيف تطورت؟"
وتشمل هذه البداية
لموجزة تعريف
تدولية، وترجمتها،
ونبذة عن جنورها
وخلفياتها. يتبع ذلك
الكلام عن السياق،
خصوصاً ذلك

أيها القارئ

"أيها القارئ!

هذه مقالات مختلفة في مواضيع شتى كتبت في وقت
متفاوتة، وفي ظروف وأحوال لا علم لك بها ولا خبر على
الأرجح. وقد جمعت الآن وطبعت وهي شبايع لمجموعة
منها بشرة قروش لا أكثر! ولست ادعي تنظي فيها
شيئا من الصق أو الابتكار أو السداد. ولا تاربعها
ستحدث انقلابا فكريا في مصر أو فيما هو دونها، ولكني
أقسم أنك تشتري عصارة عقلي وإن كنت فجأ. وثمرة
إطلاعي وهو واسع، ومجهود أعصابي وهي مقيمة.
بالخمس الأمان! وتعلل نتحسب! ... وفي الكتاب عيب هو
الوضوح لآفرقه! وستقروه بلا نصب، وتعلمه بلا عناء
ثم يخيل إليك من أجل ذلك أنك كنت تعرف هذا من قبل
وأنك لم تزد به علما! فرجتي إليك أن توفق من الآن أن
الأمر ليس كذلك وإن الحال على نقوض ذلك" (إبراهيم عبد
القدار المازني: حصص الهشيم، المعقمة، ١٩٢٤، القاهرة:
طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠٠١، ص ٣-٤). هذه مقجمة
أخرى لطيفة لكن طرفتها ليست تبريرا شافيا لوجودها
هنا. السياقان مختلفان - سياق هذا الكتاب وسبق حصص
الهشيم - وكذا قيمة كل من الكتابين وأهدافهما
وأسلوبهما. لكن من اللائق أن أعترف بمثل ما اعترف به
المازني في قوله "لست ادعي تنظي فيها شيئا من الصق
أو الابتكار أو السداد، ولا تاربعها ستحدث انقلابا فكريا
في مصر أو فيما هو دونها".

لما إن الكتاب "عصارة عقلي... وثمرة إطلاعي...
ومجهود أعصابي..." فهذا مما لا يستطيع أن ذهب فيه
إلى ما ذهب إليه المازني. هذا التبسيط ثمره سنوات من
التعلم والقراءة والتفكير. والحال هكذا، فلابد أن رد
الفضل لأهله من لسانة لغت من علمهم تتنمنا أو قراءة
أو استماعا أو مراسلة، ومن تحاورت معهم من زملاء
وأصدقاء وطلاب، ومن لم أشرف بالتحرف إليهم من
لسانة قرأوا ما كتبت فأعزوني على إصلاح كثير مما فيه
من عيوب. لما ما بقي بغير إصلاح، فلا تثريب فيه
عليهم. ولا تثريب عليهم فيما يضم الكتاب من ترجمت.
وكلفا لكتابه ما لم يرد غير ذلك في موضعه.

التصور الذي قدمه دل هايمز، ثم للنحو الوظيفي والطروحات هقيدي. وتصنيفه وظائف اللغة وأفعالها، ثم المبدأ التعاوني لبول جريمن. وهو الأسس الذي قامت عليه نظريات الكياسة واللياقة، وأمثلة لتوظيفه وتوظيفاً نكياً في النشر العربي. ثم التضمين وما يرتبط به من الافتراض المسبق والمطوم من استنطق أو جملة بالضرورة. وجميعها تتصل اتصالاً وثيقاً بهذا المبدأ. وتفسر كثيراً من انتهاكاته لتحقيق غايات بلاغية. ثم نظرية لعمال اللغة في فصل "ماذا نفعل بالكلمات؟". وهو فصل تأسيسي مهم تتطرق منه جملة مفاهيم تدلوية. ثم التائب والكياسة والنظريات المهمة في هذا الصدد للكوف ولينش وبرون ولينسون. ثم الإشارة التي تتجاوز ما نعرف من أسماء الإشارة إلى الإشارة الاجتماعية والخطبية والزمنية والوجدانية، تتبعها نبذة عن التدلوية العامة التي طورها هابرمان. وتسمى إلى التوفيق بين النظرية والتطبيق. ثم تحليل الخطاب ولغويات النص. وما يرتبط بهما من دراسة المسبك والحبك وشروط النصية، ثم التحليل النقدي للخطاب ومفاهيمه. ومنطلقته. وأخواته. ثم تحليل الخطاب السياسي، وهو امتداد مهم لتحليل الخطاب التقليدي والنقدي. يلي ذلك تعريج على دراسات تحليل الخطاب (السياسي) في العالم العربي. وينتهي الكتاب بمجموعة من النصوص والتطبيقات لبعض ما ورد فيه من أدوات ومفاهيم.

وفي الكتاب عدد كبير من الاستطرادات ترد في نهاية كل فصل من فصوله. لعلها لا تبدو نظرة أو مقدمة، بعضها استطرادات مهمة عن المفاهيم. أو الاموات. أو الأطروحات التي يتناولها الكتاب، وبعضها أمثلة طريقة في مواضيعها. وبعضها اشارات إلى البلاغة العربية بما يناسب المقام. وبعضها اقتباسات مهمة ذات صلة بموضوعات الكتاب، أو تعليقات على ما فيه من مصطلحات. أو على مشكلات ترجمة تدلوية في الثقافة العربية.

ما هي التداولية؟

التداولية لغة من التداول، والتداول تفاعل، وكل تفاعل يلزمه طرفان على فكر تقدير: مرسل ومستقبل، متكلم وسماع، لو مستمع، كاتب وقارئ، على معنى أن مدار اشتغال التداولية هو مقاصد وغايات متكلم، وكيف تبلغ مستمعا أو متلقيا. وكل تداول تحكمه ظروف وليات وعوامل تحيط به، لذا فالترجمة لها ما يبرزها، ويبدو أنها قد استقرت بالفعل على حساب "البراجماتية" و"البراغماتيكية"، وهما، بالإضافة إلى "اعجميتهما"، ربما تؤيدان إلى خلط بين المقصود في هذا التسميط والمدرسة الفلسفية المعروفة بالإنفعالية أو النزاعية Pragmatism (البراغماتية أو البراغماتية)..

لنا اصطلاحا، فالتداولية Pragmatics هي دراسة اللغة قيد الاستعمال أو الاستخدام language in use، بمعنى دراسة اللغة في سياقاتها الواقعية. لا في حدودها المعجمية، أو تركيبها النحوية، هي دراسة للكلمات والعبارات والجمل كما نستعملها ونفهمها ونقصد بها، في ظروف ومواقف معينة، لا كما نجدها في القواميس والمعاجم، ولا كما تقترح كتب النحو التقليدية. خذ مثلا كلمة "شكرا"، في لسان العرب لابن منظور "الشكر: عرفان الإحسان ونشره، وهو الشكور أيضا، قل شطب: فشكر لا يكون إلا عن بد، والحمد يكون عن بد وعن غير بد، فهذا الفرق بينهما. فشكر من الله: المعجزة والثناء للجمل، شكره وشكر له يشكر شكرا وشكورا وشكراف.

وفي استصالاتنا اليومية، تتجاوز الكلمة مجرد العرفان بالإحسان ونشره. ففتشا عنها معان جديدة، ودلالات تتجاوز حدودها المعجمية الضيقة مهما قصت، فربما لوحث بالفرض، أو التهم، أو الضيق. مثل آخر: ماذا نقول معلجنا العربية عن "الحرارة"، و"البرودة"، و"البينة"؟ لا بد أن ما يرد فيها (من نكر حرّ بوصفه نقيض البرد، و"البينة بوصفها ما يحيط بنا من كلنات وأشياء وظروف) يقصر عن إبراز كل ما نضحي تلك المفردات في سياقاتها الراهنة المتباينة (من قبيل القماء الحارة، وحرارة

للقاء، وبرودته، وبرودة المشاعر، والبيئة صفة لكل ما هو حقيق في بعض اللهجات العربية المعاصرة). يصدق هذا على العبارات والجمل والنصوص.

بهذا المعنى، تمثل التداولية، في تشغالها بعلاقة العلامات بمنتجها، ومستقبلها، وسبق إنتاجها، وتلقيها، الضلع الثالث من أضلاع مثلث علم العلامات وفق توصيف موريس Morris (١٩٣٨)، أما الضلعان الأول والثاني فهما النحو Grammar وعلم دلالة Semantics. ينشغل النحو بعلاقة العلامات بعضها ببعض، أي علاقة المفردات، والأقوال، والروابط في العبارة، والجملة. والنص، أي بناء الجملة والعبارة. والعلاقات التي تربط بين مكوناتها. أما علم المعنى أو الدلالة فيتناول علاقة العلامات بما تشير إليه، سواء كانت أشياء، أو كائنات، أو تصورات.

على سبيل التبسيط نتوقف عند مثال واحد، وهو كلمة "عسل". من وجهة نظر نحوية يلتفتنا أفراد هذه الكلمة ودخولها في علاقات بنائية، كالصفة في علامتها بالموصوف، والتعريف والإضافة، في عبارات وجمل من قبيل "عسل طيب"، و"عسل التحل"، و"فصل فيه شفاء للناس". من ناحية المعنى، تحيل المفردة إلى مادة نعرفها، وإلى ما يرتبط بها من الصفاء والشفاء، أما من ناحية التداولية، فتكتسب المفردة دلالات متباينة. وربما متناقضة، في سياقات مختلفة، وإغراض شتى، كالمدح، والوصف، والفزل، وربما التهكم.

يصدق هذا - على ما فيه من تبسيط - على سائر المفردات والعلامات، وقد كان من آثار تطور علم العلامات - وهو يستحق تبسيطا منفردا ومعالجة وفية - أن تجاوزت أضلاع المثلث الثلاثة - النحو وعلم الدلالة والتداولية - حدود اللغة لتقتديبها الضيقة، إلى رحابة العلامات، على معنى أن للصورة يعدها تركيبية ودلالية وتداولية. وللون، وللحركة، وللرائحة، وللإيماء، وغير ذلك من صنوف العلامات، ولها ما للمفردات من معان قريبة، وأخرى بعيدة، وفيها ما فيها من تشبيهات واستعارات. وسوف نجد طرفا من ذلك في هذا التبسيط.

كيف تطوّرت؟

تطوّرت التداوليّة ضمن مجموعة من المقاربات اللغوية. من بينها تحليل الحوار Conversation Analysis، وتحليل النص Text Analysis، وتحليل الكلام / الخطاب Discourse Analysis، بوصفها امتداداً طبيعياً لاطروحات النحو الوظيفي Functional Grammar التي طوّرها هابيداي (١٩٨٥). كما ترد الإشارة إلى ذلك لاحقاً، ومنها أنّ المصنّى ليس فيما يقول فُتحاف. ولا ما تقول المعلم، على ما لكليهما من أهمية، ولا في الصّليات المعرفيّة المجردة من سياقاتها، لكن فيما يقصد من يستخدم اللغة وما يريد، وفيما يلهم من يتلقاها - استماعاً أو قراءة - وفيما ينتج من دلالات من خلال ظروف السياق.

وقد أصبح السياق، وهو موضوع الفصل التالي من هذا الكتاب، مفهوماً مركزياً في كل الاتجاهات الوظيفية، بما في ذلك للتداوليّة، وكان لتصوّر دل هابيز عن عناصر السياق أصداؤه الواسعة التي تظلّ تترنّد حتى اليوم. ومن مقننات التداوليّة كذلك نظرية فحل اللغة/ الكلام كما طوّرها جون أوستن وجون سيرل. والمبدأ التعاوني ومفهوم التضمين عند بول جرايمس. حتى إذا استوت التداوليّة وتحليل الخطاب (متراخين، أو متمايزين، أو متداخلين) على سوقهما، نشأت الحاجة إلى منظور نقدي سياسي، فكان التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي.

السياق

ما البلاغة؟

"قول للفارسي: ما البلاغة؟ قل: معرفة الفصل من الوصل. وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قل: تصحيح الاقلام. واختيار الكلام. وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قل: حسن الاختصاص عند البداة. والقررة يوم الإطالة. وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قل: وضوح الدلالة. وفتقر الفرصة. وحسن الإضارة. وقيل بعض أهل الهند: جماع البلاغة لبصر بالخطبة. والمعرفة بمواضع الفرصة. ثم قل: ومن البصر بالخطبة. والمعرفة بمواضع الفرصة. إن ندع الإضاح بها إلى كناية عنها. إذا كان الإضاح نوع طريقة. وربما كان الضراب عنها صفاً يبلغ في الترك. ونحى بالظفر. قل: وقال مرة: جماع البلاغة التماس حسن الموقع. والمعرفة بساعت القول. وقلة الخرق بما تنبئ من المعنى أو غرض. وبما شرد عليك من التلظ أو تحذر" (فجالحظ: الهين والسيين. ص ٢٧. من موقع الورق).

في مربع النص المرفق بعض ما ورد في البلاغة العربية عن "المقام" - وهو ما يقابل مفهوم **speech situation** في المقاربات الغربية - عند فجلحظ. من كتابات تؤكد على تحيين الفرصة المتاحة وظروف المناسبة لإيجاز المهام البلاغية التواصلية، ومن كلامه عن بلاغة الإقناع. وعند الجرجاني، في ربطه العبارة بالمقاصد في دراسته لتنظيم والإعجاز. وغيرها.

في الغرب. كان لمقولات دل هابيز Hymes (١٩٧٢) عن الكفاءة التواصلية **Communicative Competence** - التي تتجاوز مجرد الكفاءة النحوية والصرفية والصوتية وفهم المفردات المجردة،

إلى فهم الموقف والسياق، واختيار المفردة المناسبة في المكان المناسب. إذا جاز التعبير، وما إلى ذلك - تأثيرها البالغ في تطور التداولية اللغوية. ومن طروحات هابيز العناية بكلامه عن السياق، وما يندرج تحته من عوامل ومتغيرات لخصها في كلمة **SPEAKING** (١٩٧٤، ص ٥٤-٥٧). فيما يلي يبين وتوضيح مضاهها،

مع استطرادات مضافة، وسوف تتردد هذه العناصر والمكونات في كل ما ينسب من أجزاء هذا التبسيط:

§ المكان والزمان Setting - ما يُقال في البيت ربما لا يجوز أن يُقال في المسجد أو الجامعة، وما يمكن أن نقبله في توقيت بعينه ربما لا نقبله في غيره.

§ المشاركون Participants - من يتحدث إلى من؟ وعن؟ وفي حضور من؟ وما العلاقة التي تربط أطراف الحوار أو الخطاب؟ بنوة، أم صدقة، أم زمالة، أم زواج، أم عدوة، أم تتلمذ، أم غير ذلك - كلها متغيرات مهمة تشكل اللغة. وتؤثر في اختيارات من يستخدمها على مستوى المفردات، والتركيب، والصيغ. غير أن ما ينبغي أن يركز عليه التناول هو علاقات التقارب والتباعد التي تصل أو تفصل بين المشاركين. وهذا جانب من التحليل وجد غاية خاصة من نقد القنولية التقليدية فيما بعد.

§ الغايات والأهداف Ends - لماذا نتكلم، أو نتحاور، أو تكتب؟ ربما بقرض الإقناع، أو الإخيار، أو الإيهام، أو الكذب، أو الخداع، أو الترغيب، أو التهريب، أو النصيح، أو التحذير، أو التطويم، أو التهذيب، أو التجميل، أو التشويه، أو المدح، أو الذم، أو غير ذلك. في البلاغة العربية فصول ناصعة عن الأغراض الشعرية، من وصف، وغزل، وتشبيب، ورثاء، وهجاء، وفخر، وهكذا، ولا بد أن من طالع بعض هذه الفصول قد وقف على تأثير الغرض الشعري في المفردات، والصياغة، والإقناع. على أن دراسة غرض الخطاب لا ينبغي أن تقتصر على النصوص الشعرية، ولا الشعرية، بل يجب أن تتجاوز ذلك إلى كل ما ينتج دلالة، لانه ينتج لتحقيق غاية.

§ تتابع وحدات النص/ الخطاب، وترابطها Act Sequence - كل خطاب يقع بين خطابين: سابق ولاحق، ويرتبط بهما، فربما تروي طريقة تعظيما على بعض ما يقول محذرتك. وربما تذكره بآية من القرآن الكريم. أو حديث شريف. وربما يحجب الاعتذار القبول، أو الإعراض، ويحجب التهنية الشكر. وفي الرسالة تحية، وسلام، فؤاد عن الحال والمآل، ثم للوفاء بغرض الرسالة، فالأمنيات الطيبة. والسلام.

§ الجو النفسي ونضة الحوار / النص Key. يتجاوز مفهوم نضة في هذا السياق مجرد الحزن أو البهجة، إلى غير ذلك من سخرية، أو تهكم، أو جدية، أو قلق، أو فكاكة. ولا بُدّ أننا لاحظنا أنّ الحدود التي تفصل بين الجو النفسي وغرض النص وأمية. لا تكاد تبين في غالب الأحوال، فلا بُدّ أن يشتمل فهجاء على شيء من التهمك، والبقاء على الأطلال على حزن وفجبة.

§ آليات تحقيق الغايات البلاغية والخطابية Instrumentalities ووسائلها وفواتها - من مفردات مختارة بضائية، وتركيب ملائمة، وصور وتعبير، وتوظيف لصنوف الاتصال غير اللفظي. لا حصر لما يمكن أن يستخدم المتكلم أو الكاتب من أدوات لتحقيق غاياته البلاغية والتواصلية.

§ القواعد التي تحكم إنتاج النص / الخطاب وتلقيه Norms من قواعد لغوية خطابية تتسم مع جنس الخطاب وغاياته، وقواعد اجتماعية تنظم استخدام اللغة وإنتاج الخطاب عموماً، وقواعد تقنية تتسم مع الوسيلة التي ينتقل من خلالها الخطاب.

، الجنس/النوع الخطابي الذي ينتمي إليه النص / الخطاب Genre (من لازم في هذه المرحلة من نضج التداولية وتحليل الخطاب أن نتخلى عن مفهوم الجنس الأدبي، ما معنا لا نتحدث عن الأثب، لصالح المصطلح الأرحب، وهو الجنس أو النوع الخطابي). تفرض لجناس الخطاب المتباعدة قيوداً مختلفة على قتلجه. حين نقرأ تقريراً بغيراً عن مباراة في كرة القدم، نتوقع أن نجد استعادة لما جرى في شوطيها، وما حطت به، أو لم تحفل به، من أهداف، وحدث آخر مؤثرة، ونتوقع أن نعرف أسماء اللاعبين، وطاقم التحكيم، وزمان المباراة، ومكانها، وما إلى ذلك. نتوقع كذلك سرداً في صيغة الماضي، وأفعال حركة، وتحول، واستعارات "حربية"، وطرق سبك وحك تحيل إلى الزمان من بداية مباراة حتى نهايتها.

ومن الكلام عن السياق ما ورد عن مالفينوسكي ومن بعده روجر فاولر Fowler (١٩٨٦) من تصنيفه إلى سياق الجملة أو العبارة (السياق اللغوي) context of

utterance، وسياق الموقف context of situation، وسياق ثقافة context of culture، وهو تصنيف ينتقل من الضيق إلى الواسع - من سياق الكلمات والتراكيب، إلى ما يحيط بها من ظروف الزمان والمكان، والظروف الاجتماعية، والعلاقات بين المشاركين في الخطاب، إلى الثقافة التي ينتج فيها الخطاب. وما تشتمل عليه من قيم، ومعتقدات، وعادات وتقاليد، وطقوس وشعائر، وفلسف، وغير ذلك.

1

فان دايك (٢٠٠٨)

مقدمة عن السياق

قبل ثلاثين عاما، ألقت كتابا بعنوان (النص والسياق) تناولت فيه مفهوم النص تناولاً شاملاً جداً مسهباً، لكن السياق - وبما له من أهمية بالغة في فهم الجنور الاجتماعية للخطاب - لم يحظ بنفس هذا التناول في الكتاب. فيما أعقب ذلك من دراسات في مجال تحليل النقدي للخطاب - على سبيل المثال في دراستي عن الضمنية والأيدولوجيا والخطاب - تناولت السياق بتوسع وإسهاب بوصفه خلفية اجتماعية للخطاب، غير أنني لم أتناوله من الناحية النظرية.

لقد درج تناول السياق في دراسة اللغة والخطاب بالنظر في عدد من المتغيرات الاجتماعية المعقدة، كالنوع والطبقة الاجتماعية والخلفية العرقية والسن والهيوة، والظروف الاجتماعية التي تحيط بالخطاب نصاً كن كلاماً. في دراست الإشارة indexicality سواء من جوانبها الشكلية النحوية أم من زاوية بيناتها الاجتماعية، يرد تعريف السياق دلالياً بمعنى ما يُشار إليه أو ما تحيل إليه تعابير

الإشراطية. لكن يبقى هذا التعريف قاصرا ومحدودا بالإشارة إلى الزمان والمكان. ففى نظرية أفعال الكلام (اللغة) **Speech Act Theory** تفصيل بعض سمات من يتكلم ومن يسمع أو يستمع - من خلفياتهما المعرفية ورغباتهما ومكتبة كل منهما الاجتماعية - تفصيل يسعى إلى صياغة لشراط للملازمة وضرورتها. لكن ففظرية فى نسخها المتعاقبة لم تسع إلى تحليل هذه الأشراط والضرورات السباقية تحليلا منهجيا رصينا.

فى التحليل النقدي للخطاب **Critical Discourse Analysis**. نحظى الظروف الاجتماعية التى تحيط بالخطاب باهتمام كبير، خصوصا ما يتصل منها بالقوة (أو السلطة) **Power** وسوء استخدامها، لكن هذا الاتجاه فشل أيضا فى تطوير نظريات واضحة المعالم للمباق تعينه على ترسيخ مشروعه النقدي. إن القوة لا تتبدى فى بعض أبعاد "خطاب الأقوياء" فحسب، بل تبقى اللجة إلى فهم سباقها فواسع المرعب حتى تتجلى علاقتها بالخطاب نصا كان لم كلاما وحتى نفهم كيف يعيد الخطاب إنتاج البنى والامباق والعلاقات الاجتماعية.

و قد تطورت الدراسات النفسية المعرفية للخطاب وكذا دراسات فكاء الاصطناعي تطورا ملموسا فى العقود الأخيرة فيما يتصل بالترف على العمليات والتمثيلات ذهنية التى يشتمل عليها إنتاج الخطاب وتلقيه. لقى هذا التطور الكثير من الأضواء على دور الجوهرى المهم للنماذج الذهنية والمعرفية فيما يتعلق بمعقجة الخطاب وتداوله. غير أن هذه النماذج ظلت دلالية فى جملتها على حساب فجوب فتدولية. وبلمستاء عدد من الدراسات التجريبية التى تناولت الفروق الفردية واختلاف المقاصد والأهداف، لم يحظ أثر المباق فى معالجة الخطاب بما يستحق من دراسة عملية منهجية مننظمة.

فما علم فنفس الاجتماعي فهو من بين فروع المعرفة فقيلة التى طورت وقضمت فكرا عن بنية الموقف والوقائع والأحداث الاجتماعية من الممكن أن تكون أساس نظرية سباقية. غير أن هذه الأفكار لم يكن يقصد بها سباق الخطاب. فى الحقيقة يبقى

الانشغال بدراسة الخطاب هامشياً في علم النفس الاجتماعي بجمالاً. إلا أن التحليل النفسي للخطاب لو "علم نفس الخطاب" إذا جاز التعبير. Discursive Psychology. وإذا كان لأي من فروع المعرفة أن يلقى الضوء على طبيعة السياق وفكره في الخطاب. فلعلم الاجتماع أن يفعل ذلك، لكن المفارقة هي أن لتأثير المهم نظم الاجتماع في دراسة وتحليل الخطاب قد ذهب إلى تحليل المحادثة أو الحوار conversation analysis والذي ظل - على الأقل في بدايته - منجساً من سبيله أكثر من تحليل الخطاب، يركز على بنية التفاعلات اللغوية وتنظيمها على حسب زمتها ومكانها وسمات المشاركين فيها. غير أن علينا أن نتوقف هنا عند المحاولات المنتشرة في عقود سابقة لتحديد وتعريف الموقف الاجتماعية social situations في علم الاجتماع والتي بلغت نضجها في كتابات رافنغ جوفمان Goffman - ولعله أكثر علماء الاجتماع إسهاماً في لقاء الضوء على أثر الموقف الاجتماعي في الكلام والتفاعلات اللغوية.

غير أن الأنثروبولوجيا، خصوصاً دراسة بينات الكلام ethnography of speaking والأنثروبولوجيا اللغوية، هي الوحيدة من بين الاتجاهات البحثية التي تشق باللغة التي اهتمت اهتماماً واضحاً لعقود عدة بدراسة السياق بوصفه مكوناً جوهرياً من مكونات "الوقائع أو الأحداث التواصلية". بداية من طرح دل هيلمز Hymes تصوره عن تلك المكونات والذي اختزل في كلمة SPEAKING في ستينيات القرن الماضي. يتصل بذلك ما قلم به جون جومبيرز Gumperz من دراسات تنويرية وما أجرى غيره من دراسات في علم لغة الاجتماع التفاعلي Interactional Sociolinguistics تتناول تحليل لغة في سياقها الاجتماعية contextualization. وحتى يومنا هذا، يظل هذان الفرعان من الأنثروبولوجيا متفردين فيما ينتمون من دراسات وكتب عن السياق ووضع اللغة في سياقها الاجتماعية.

من خلال ما سبق من عرض موجز، نستطيع أن نخلص إلى أن هناك اهتماماً متزايداً بدراسة السياق في كل فروع المعرفة في الإصناف والطوم الاجتماعية. غير أن هذا الاهتمام ما زال يعوزه التركيز. هناك آلاف من الكتب في غير فرع من فروع المعرفة نجد في عناوينها كلمة "السياق" context لكن في جُلّ هذه الكتب تفتقد المفردة الصرامة الدلالية، فتشير إلى "البيئة" أو "الموقف" أو "الخلفية" أو "ظروف" الاجتماعية أو السياسية أو الجغرافية أو الاقتصادية. ويندر أن ترد بمضاهها المحدد وهو "سياق النص أو الكلام".

وهناك عدد لا بأس به من الكتب في اللغويات ودراسات الخطاب والطوم الاجتماعية يرد فيها السياق بوصفه مجموعة من القيود التي تحيط بالخطاب ويُحدّد نتاجه ونوعه. غير أن هذه الدراسات تركز في جملتها على الخطاب ذاته، لا على سياقاته المعقدة المتشابكة. ليس هذا بمستغرب لأن مفهوم السياق لا يمكن أن يتجلى إلا بالنسبة إلى النص، على معنى أن النص - أو الكلام - هو ظاهرة محورية وبؤرة الاهتمام. أما السياق فتكمن أهميته في إلقاء مزيد من الضوء على الخطاب وتيسير تحليله وفهمه. وإذا لم يؤد السياق هذا الدور، فلن دراسته المجردة تنتمي إلى علم النفس أو علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا في دراستها الزمان والمكان والفاعلين في المجتمع وسماتهم المميزة وكذا مداركهم ونشاطاتهم وتفاعلاتهم وممارساتهم وتنظيماتهم الاجتماعية.

لقد نأ الأولن لأخذ السياق مأخذ الجد ولصياغة نظريات واضحة المعالم عن السياق والطرق التي يرتبط بها بالخطاب والتواصل. هذا الكتاب، وكذلك كتاب (المجتمع والخطاب) (van Dijk, 2008) الذي يتناول دراسة السياق في الطوم الاجتماعية، محاولة لصياغة نظرية يصدق عليها ما سبق من وصف. في سبيل هذه الغاية، يتناول هذا الكتاب بالدراسة مفهوم السياق واستخدامه وما يمكن أن يندرج تحته من عناصر في اللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي. أما كتاب (المجتمع والخطاب) فينتقل بهذا التناول النظري إلى علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع

والأنثروبولوجيا، وسوف ترد إشارات إلى بعض الدراسات في هذه العلوم في غير موضع من هذا الكتاب. ورغم أن الكتّابين متصلان لا سبيل إلى فصلهما، يظل كل منهما دراسة مستقلة بذاتها حيث يخاطب هذا الكتاب المهتمين باللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي، بينما يخاطب الآخر المهتمين بعلم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والعلوم السياسية. ولعني رجو أن يتمكن من قراءة كتابي هذا من قراءة قرينه الذي يتناول السباق في العلوم الاجتماعية لما بين الكتّابين من وثيق الصلة ولما بين السياقات الاجتماعية للخطاب من ناحية ودراسة المؤلف والتفاعلات التواصلية في العلوم الاجتماعية من الناحية الأخرى من علق وصلات.

ولأن هذا الكتاب هو أول دراسة مستقلة تجعل من مفهوم السبق شغلها فشاغل، فلا بد أن نقرأ بوصفها دراسة استكشافية. وهي دراسة نظرية تمتلهم تفكراً وتطورات ذات صلة في اللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي، وترجع عدداً كبيراً من الأبحاث التطبيقية، لكنها لا تقدم جديداً فيما يتصل بدراسة السبق في بنات الكلام والتواصل. عوضاً عن ذلك، يوضح الكتاب النظرية التي يبلورها من خلال تناوله نقد لنشر الخطابات المعاصرة تأثيراً وأهمية وهو الجدل الذي دار حول العراق في مجلس الصوم البريطاني. لقد تقدم توني بلير في خطبه ضمن هذا الموضوع بطلب يجيز الحرب على العراق - وهي الحرب التي علينا جميعاً عوضها فوخيمة - ودفع عن طلبه.

في خطاب بلير وفيما تلاه من كلمات ألفاها أعضاء البرلمان البريطاني أمثلة تثبت أن أية مقارنة تجرد الخطاب أو الحوار من سياقاتهما تظل مقارنة قاصرة وربما ينتج عنها مجرد توصيفات سطحية شكلية، وربما سانجة، لا تقى الخطاب أو الحوار حقهما من التحليل، ذلك لأن الخطاب وما أعقبه من كلمات لا يمكن اجتثاثهما من الواقع الاجتماعي والسياسي الذي أحاط بهما. ولأن من فيديهي أن كل شيء يمكن أن يكون له صلة بالخطاب عموماً - على الأقل تلك الموضوعات التي نتكلم عنها أو فيها وما لا حصر له من المقامات والمواقف التي نتكلم أو نكتب أو نستمع أو نقرأ فيها - فإن نظرية السباق يتهددها خطر جسيم هو أن تنتهي إلى نظرية بلا معلم

محددة، "نظرية عن كل شيء". لذا فمن الأهمية بمكان أن نحدد مجال النظرية وأن نفصلها عما يحيط بها من ظواهر اجتماعية. وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن خطاب توني بلير ينبغي أن يقرأ لا بوصفه مجرد خطاب رئيس وزراء يتوجه به إلى أعضاء البرلمان - وإلى الأمة البريطانية وإلى العالم - في سياق تفككت فيرمانية التي جرت في مجلس العموم البريطاني يوم الثامن عشر من مارس، ٢٠٠٣، بل بوصفه كذلك جزءاً لا يتجزأ من سياسة المملكة المتحدة الخارجية وعلاقتها بالولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي ومن موقفها من قضية الشرق الأوسط وما إلى ذلك.

فإذا شئنا ألا نضيع في متاهة السيفقات التي لا نهاية لها، فلا بد أن نقنع بأن ليس كل ما نراه "خلفية" للخطاب جزءاً من سياقه بالضرورة، طالما أننا نلتزم الصرامة في تعريف مصطلح السياق على المستوى النظري. إن بلورة وتطوير نظرية عن السياق تعني قول ما تعني اختيار تلك العناصر التي يتكون منها الموقف التواصلية وتتصل اتصالاً وثيقاً بما يشتمل عليه من نص أو كلام. يستلزم هذا أن نتعرف بداية على مفهوم الموقف التواصلية في اللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي وكذا الاجتماعي وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، ثم نتوصل إلى معايير تحدد ما تشتمل عليه نظرية السياق وما لا تشتمل. هذا الكتاب ليس دراسة استكشافية أولية أو مراجعة لعدد كبير من الدراسات السابقة فحسب، بل يضيف إلى ذلك طرح مقولة نظرية ربما تبدو من قبيل الكلام المعاد، على الأقل بالنسبة لعلماء النفس ولبعض علماء الاجتماع القدامى الذين اهتموا برصد ظواهر الاجتماعية المعقدة والسلوكيات الواعية، لكنها تبقى غير واضحة في كثير من العلوم الاجتماعية وكثير من الاتجاهات التي تهتم بالخطاب والتواصل اليوم. أما المقولة فبسيطة، لكنها بلغة الأهمية في فهم ماهية السياق وطبيعته وعلاقته بالخطاب:

"ليس ما يؤثر في الخطاب أو يتأثر به هو الموقف الاجتماعي، بل رؤية المشاركين في الخطاب هذا الموقف وإدراكهم إياه".

ليست الميقات إن مجموعة من العطل المباشرة التي تبرز الخطاب ولا من الظروف الموضوعية المجردة، بل هي مجموعة من التصورات الذاتية الشخصية التي تتشكل وتتغير باستمرار أثناء التفاعل بين المشاركين في الخطاب بوصفهم أفراداً ينتمون إلى جماعات ومجتمعات. أية ذلك أننا إذا سلمنا بأن الميقات هي مجموعة من الظروف والقيود الاجتماعية الموضوعية المجردة، فلا بد أن نتوقع ممن يققون الموقف الاجتماعي نفسه أن يتكلموا بنفس الطريقة والأسلوب. لذا ينبغي أن تتجاوز نظرية السياق الوضعية الاجتماعية والواقعية والحنفية في أن، فالميقات ما هي إلا تصورات المشاركين في الخطاب. لهذا السبب أيضاً تبقى الفرضية الأساسية لنظرية السياق فرضية اجتماعية معرفية ويبقى المنظور الذي يتلمس عليه هذا الكتاب منظوراً اجتماعياً معرفياً في دراسة للسياق في إطار مقارنة بين نوعية، عبر تخصصية شاملة.

تفسر مقولة الميقات بوصفها تصورات ذاتية للمشاركين في الخطاب كذلك تميز النصوص وتفردا وتمايز أجزائها مكتوبة كانت أم منطوقة. وتفسر كذلك الأرضية المشتركة والتمثيلات الاجتماعية المتجانسة للمشاركين في الخطاب عندما يبلورون من خلالها تصورهم الموقف الاجتماعي الذي تطلق عليه السياق على سبيل الاصطلاح. وسوف نرى أن في علم النفس مفهوما نظرياً مفيداً يضع النظرية على أساس معرفي متين، ألا وهو مفهوم النموذج الذهني. لذا سوف نستبدل بمفهوم الميقات، بوصفها تفسيرات ذاتية للمواقف التواصلية. مفهوم نماذج السياق.

لما ما تفعل هذه النماذج وما يجب عليها أن تفعل فيجابه فيما يلي:

§ تؤثر في إنتاج الخطاب وتلقيه من قبل المشاركين فيه.

§ تتيح للمشاركين في الخطاب تطويعه بما يناسب الموقف التواصلية ويناسب ظروفهم أثناء التفاعل أو التواصل.

§ تضع الحلقة المفقودة المهمة في النظرية المعرفية للنص، بين النموذج الذهنية للأحداث موضع الخطاب أو الإشارة وبين صورة الخطاب وطريقة صياغته في الواقع.

§ تحدد ظروف الملاءمة والمناسبة للخطاب ومن ثم تصبح أساساً للنظرية التداولية عموماً.

§ تضع أساس نظرية الأسلوب والنوع الخطابي ومستوى اللغة وكل ما يقع في الخطاب من تنوع وتباين.

§ تمثل الحلقة المفقودة بين الخطاب والمجتمع، بين الشخصي والاجتماعي. بين المضي والمبني. وهي لذلك تتيح تناول إشكالية البنى الصغرى والبنى الكبرى بما يرب الصداق بينهما بنفس الطريقة على الأقل فيما يتعلق باللغة والتواصل.

§ يمكن صياغتها في الفجوات التقليدية والنحو والقواعد الشكلية المجردة بما يتجاوز الأبعاد الدلالية للتعبير الإشارية - وقد تبلورت هذه الصياغة لكن على استحياء.

§ تضمن استمرار البحث اللغوي الاجتماعي في تجويزه دراسة قترابط بين الخطاب والمتغيرات الاجتماعية، وفي اهتمامه بآثار العوامل الاجتماعية على التركيب والأساق الخطابية.

§ تجلّى بعض أفكار ومفاهيم علم الاجتماع للتقليدية التي لم تفقد أهميتها ومن ذلك تعريفه الموقف، الذي يبقى صالحاً للتطبيق في تحليل التفاعلات اللغوية والحوارات أو المحادثات.

§ تبين كيف يمكن للمصالح أن يتحكم في أبعاد الخطاب نصاً كان أم كلاماً، تلك الأبعاد التي تستلزم على الملاحظة لكن تبقى فاعلة مؤثرة.

§ تسهم في إعادة صياغة بعض الأطر النظرية التقليدية في الأنثروبولوجيا فيما يتصل بدراسة الوقائع التواصلية.

§ كما يتضح من خلال التحليل المصالي النقدي لخطاب توني بليز وما أعقبه من تدخلات في موضوع العراق، يظل الوصف المنهجي المنضبط للمصالح أساساً من الأسس التي تقوم عليها دراسات الخطاب النقدية وغيرها من الاتجاهات الاجتماعية السياسية في تحليل الخطاب.

ولأن النظرية ما زالت في طور التشكل، لم تكتمل صياغتها بعد. فقني أرجو من هذا الكتاب أن يكون دعوة إلى مزيد من الدراسات والأبحاث. فلكتاب يتناول عددا كبيرا من القضايا التي تنتظر مزيدا من البلورة النظرية والدراسات التجريبية النفسية والوصف الإثنوجرافي الذي يهتم ببيئات الخطاب وكذا مزيدا من تحليل قوَمَع للخطاب. أن تأثير السياق عادة ما يكون عموما وغير مباشر ومقدرا ومربكا وربما يلم به التناقض. تتجاوز عواقبه الأثر التقليدية للمتغيرات الاجتماعية المستقلة.

أن السياق يشبه غيره من الخبرات والتجارب الإستراتيجية، ففي كل لحظة وفي كل موقف يحدد السياق كما تحدد تلك الخبرات والتجارب كيف نرى الموقف فـراهن وكيف نتصرف فـزاءه أو فيه. لذا فإن من أوجب واجبات العلوم الإنسانية والاجتماعية عموما ودراسات الخطاب خصوصا أن تنق على تأثير السياقات المختلفة في الخطاب نصا كن لم كلاما، وكذا على تأثيره فيها.

لقد بذلت من الجهد المضني لسنتين عدة في تأليف هذا الكتاب وكتاب (المجتمع والخطاب) أكثر مما بذلت في أي مما سبق من كتبتي. ومع أن صياغة نظرية، وما يتصل بذلك من تحليل بعض الأمثال الطريفة، فيه ما فيه من متعة، فربما يقع من يطور النظرية ومن يحلل فريسة اليأس لما في القضايا والأسئلة التي تطرحها من تعقيد، ذلك لأن صياغة نظرية عامة عن السياق وعلاقته بالخطاب لا ينبغي أن تتوقف عند مجرد الدراسة المركزة الدقيقة للضمانات أو تبادل أطراف الحوار أو الاستعارة، على سبيل التمثيل لا الحصر، مع أن في كل منها ما فيه من تفرعات وتعقيدات.

أن صياغة نظرية سياقية تستلزم أن تؤخذ كل أبعاد المواقف الاجتماعية وجوهرها وكذا كل المتغيرات البنائية في الخطاب واللغة المتداولة بعين الاعتبار. لا غربة، فن، في فني قضيت سنين عدة حتى أُلِم بالقضايا والإشكاليات الأساسية التي تشتمل عليها النظرية. ولا عجب أن هذه الدراسة، على ما قرمت به نفسي فيها من حدود. قد أخذت تربو وتكبر حتى خرجت في صورتها الراهنة في كتابين منفصلين ممثلين.

وما زال يرودني ذلك الشعور المؤرق قني، على ما كتبت وتفتت. لم أجاوز بعد سطح الأشياء. وهو نفس الشعور الذي خلط فهمي الخطاب وتصوّري ليهاء عندما انتهيت من تأليف كتاب (النص والميلق) منذ ثلاثين عاماً.

ولعل هذا الكتاب وقرينه الذي أشرت إليه فيما سبق، على ما فهمنا من قصور وعيوب، أن يستفزا آخرين فيقبلوا التحدي وبأخذوا على عوقفهم تطوير دراسات الميلق بوصفها مجالاً مهماً من مجالات دراسات الخطاب في كل فروع المعرفة الاستبائية والاجتماعية.

يبقى أن أرحّب، كما دأبت، بكل الاقتراحات والتعطّيات النقدية على هذا الكتاب.

§ هوامش على مقدمة ثان دايك عن الميلق

(١) لكتاب Text and Context ترجمة إلى العربية بعنوان (النص والميلق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، ترجمة عبد القادر هينسي. قدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠.

(٢) في الأصل: "دراسات الخطاب النقدية" critical discourse studies وهو المصطلح الذي اقترحه المؤلف بدلاً لكثير شمولاً من مصطلح "تحليل النقدي للخطاب" critical discourse analysis.

- (٣) التحليل النفسي للخطاب هو أحد فروع تحليل الخطاب. يركز على ما فيه من قضايا نفسية كما نجد في كتابات جوناثان بوتر (Potter, 1996a, b)
- (٤) ورد فيما سبق بيان وتوضيح ما يشير إليه كل حرف من حروف كلمة SPEAKING وفق شرح دل هايمز (Hymes, 1974: 54-57).
- (٥) ليس هناك ما يبرر العنت في ترجمة contextualization بحثاً عن مفردة واحدة تقابل المصطلح الإنجليزي من قبيل التسمييق والمسايفة وليس هناك ما يعيب ترجمة المصطلح إلى عبارة عربية، وذلك لاختلاف طبيعة العربية عن طبيعة الإنجليزية، من قبيل "وضع اللغة في سياقها" أو "تحليل الخطاب في سياقه"، فالمصطلح الإنجليزي نفسه يشتمل على جذر واحد وسابقة وثلاث لولحق.
- (٦) يعبر عن العلاقة الوثيقة بين النص والسياق اشتقاقاً لشيء context من الأول text في اللغة الإنجليزية بإضافة con التي تعيد المصلحية والإحاطة. لا تبدو هذه العلاقة جلية بين المفردتين العربيتين "النص" و"المسيق"، لكن هناك ما يشير إليها في الجناس بين المصطلحين البلاغيين العربيين "المقال" و"المقام".
- (٧) للملازمة أو المناسبة هي بعض ما تشتمل عليه المقولة بلاغية عربية "ككل مقام مقال ولكل حالة حديث" - وليس هذا "مقام" الإسهاب في موضوع المقام في بلاغة العربية، لكن ربما ترد إشارات إليه في غير موضع من التبسيط.
- (٨) في الأصل agency لما ترجمتها إلى "المضى" فتلغية جمالية يفاعية في المقام الأول، حيث تتسم مع المبنى في عبارة المضى والمبنى، على أن للترجمة مبرر آخر، فالفعل والفاعلية في النحو الوظيفي هما جوهر المضى في الجملة.

من ضرورات التّلقّي

"في يوم الثلاثاء الثامن عشر من مارس عام ٢٠٠٣، فقي رئيس الوزراء البريطاني توني Blair خطاباً في مجلس العموم تقدّم فيه بطلب بجيز تتخلّا عسكرياً بريطانيا في العراق، "بسبب استمرارها في رفض الانصياع لقرارات مجلس الأمن". وبعد أن قرأ طلبه، استهلّ خطابه بقوله:

بنير: "في البداية أقول لقد أحسن المجلس صنعاً بمنقشة هذه القضية ومن ثم إصدار قراره بشأنها. هذه هي الديمقراطية التي نمتحقها والتي يجاهد غيرنا لتحقيقها دون جدوى. ولقد قرأتني لا أستهيّن بأراء من يعارضونني. نحن نراء لاختير صعب في وقع الأمر - خياران أحلاهما مر: أن نعلق عملياتنا العسكرية هناك ثم نعود القوت البريطانية نرجها لو أن نثبت على موقفنا ونكمل الطريق الذي بدأه. فني اعتقد مخلصاً أننا يجب أن نواصل مسيرتنا، إن السؤال الذي يطرحه كثيرون عادة هو: من اين تكتسب القضية كل هذه الأهمية الكبيرة - لا يسألون لماذا هي مسألة مهمة. ها نحن أولاء وها هي حكومتنا تواجه اختباراً صعباً يهدد الاغلبية فيها وينذر باستقالة مجلس الوزراء على خلفية سياسات الحكومة، وها هي الأحزاب الكبرى تنقسم وهي فني طالما تلتقت في كل الأمور"

الاعضاء: "الأحزاب الكبرى؟"

بنير: "نعم، بالطبع أعني أيضاً الديمقراطيين الليبراليين الذين ظلوا على وحدتهم في تنهزهم الفرص المتاحة وفي لخطائهم".

حتى يتمكن الحضور من أعضاء البرلمان وحتى يتمكن - نحن فقراء والمحاليين - من فهم هذه الفقرة كما ترد في سجلات هانسارد Hansard الرسمية فلا بد بداية من الإلمام بقواعد اللغة الإنجليزية وقواعد الخطاب. في الوقت ذاته، يستلزم هذا الفهم قترا كبيرا من المعرفة بمجريات الأمور والعلم الذي يحيط بها - عن الديمقراطية وعن القوات البريطانية وعن العراق كما تشير هذه الفقرة ضمنا. تاسيسا على ذلك، نستطيع أن نفهم من بين ما نفهم أن المتحدث يدفع عن رسل قوات إلى العراق حتى تتحقق الديمقراطية هناك، حيث يفترض من بين ما يفترض أن العراق ليس فيها ديمقراطية، وأن القوات التي ستذهب إلى هناك وما تعترمه من حرب يمكنها أن تحقق الديمقراطية.

هذا الفهم الذي يتأسس على قواعد النحو وقواعد الخطاب والمعرفة بما يجري حولنا ما هو إلا جزء من الصورة. إن ما يفهم أعضاء البرلمان البريطاني يشمل إلى ما سبق أن مناقشة التدخل العسكري الذي يدعمه بلير تناسب المقام وهو مقام نقاش برلماني. ويفهمون كذلك مبررات طرح الموضوع للمناقشة وما يناط بالبرلمان من وظائف في هذا الصدد وما يفعل المتحدث توني بلير في هذه الأثناء بالمقارنة بما يناقشه من أمور وما يقنيه وما يشير إليه ومن ذلك أنه يشير إلى قوات بريطانية التي تنتظر قرار التدخل. على مضي أن أعضاء البرلمان لا يفهمون نص خطاب بلير فحسب، بل يفهمون كذلك ما يحيط به من سياق وما يرد فيه هذا الخطاب من مقلّم (لن ديك van Dijk، ٢٠٠٨، ص ١).

النحو الوظيفي

عن اللغويات النقدية

اللغويات النقدية (CL) Critical Linguistics هي الامتداد الطبيعي للنحو الوظيفي. وهي في الوقت نفسه من مقدمات التحليل النقدي للخطاب الذي ترد مناقشته لاحقاً، بل ترد في غير موضع بوصفها مرفعاً لهذا النوع من التحليل. تطورت اللغويات النقدية في كتابات فولر وزملائه، ومن أكثرها تأثيراً ونبوغاً كتاب اللغة والمسيطرة، لو التحكم *Language and Control* (١٩٧٩) الذي يجمع بين روجر فولر Fowler وجنتر كريس Kress وبوب هودج Hodge وتوني ترو Trew، وفيه تسمين لمعولات اللغويات النقدية، وخلفيتها الفلسفية، واللغوية والاجتماعية، ومناقشة اثر جورج اورويل وغيره في تطور هذا الاتجاه النقدي اللغوي، وشرح اتوجه ومنطقه وتطبيقات تلك الاتوجه في دراسة مختلف انواع النصوص. ومن منطلقات اللغويات النقدية التي يتناولها الكتاب ان البنى والتنظيمات الاجتماعية تؤثر في البنى والتركييب والاختيارات اللغوية، وان هذا التأثير ينظم كل مستويات اللغة من اصوات، ووحدات صرفية، ونحوية، ودلالات، واختيارات اسلوبية وبلاغية، وان من اكثر العوامل الاجتماعية تأثيراً فيما سبق من الاختيارات توزيع السلطة والقوة بين المشاركين في الخطاب (ص ١٩٤). ما زالت اللغويات النقدية تمارس حضورها المؤثر في التحليل النقدي للخطاب، وفي تحليل الخطاب السياسي، رغم تطور كل منهما وتفرعهما في اتجاهات معرفية، واخرى اجتماعية او تاريخية، واخرى تركز على الاستعارة والمجاز، او الجنس الخطابي واشراطه وخصائصه، وغير ذلك من اتجاهات تتناول مختلف جوانب الخطاب والعوامل التي تؤثر في إنتاجه وتلقيه، وتتلقي جميعها في التنديد على الارتباط بين العوامل الاجتماعية والاختيارات اللغوية.

وفق هذا المسبق ومتغيراته والضاير ففاعلة فيه. تتشكل اللغة. وعلى هذا، وعلى تأثير اللغة في المسبق كذلك، يتأسس النحو الوظيفي كما طوره هاليداي (١٩٨٥). ليس هذا تخصصاً لنظرية النحو الوظيفي عند هاليداي، وهي نظرية اتسي استندت إليها اللغويات النقدية التي ترد إشارة جتبية إليها لاحقاً، ولكنه مجرد مرور كريم على نمق ثري بوصفه خلفية ضرورية لتطور التدولية، وما تلاها، وما زانها من مقاربات لغوية وخطابية. في هذا

النسق. لا تقتصر اللغة على كونها ظاهرة معرفية. أو جملة من القترتيب، بل تتجاوز ذلك إلى أداء وظائف في سياقات متباينة، وتتلون بالمساق الذي تستخدمها فيه. من خلال استجابتها لتغيرات الموضوع field (في المؤسسة، أو الدين، أو الأحياء، أو التاريخ، إلى غير ذلك من مجالات والاضغالات) والعلاقات المتباينة بين المشاركين في الخطاب tenor (تقارب، أو تباعد، وما بينهما، وما حولهما من درجات وظلال) ووسقل الخطاب وقواته mode (كتابة أو شفاهة، مباشرة أو غير وسيط أو قساة، وهكذا).

تنظم وظائف اللغة في فئات ثلاث نلخصها هليداي ومزات لاس ما تلاها من مقربات تدلونية:

§ وظيفة تصورية: وهي تمثيل الواقع (للتقرير، والوصف، والإخبار والاباء) ideational (الكلام أو الكتابة عن العالم: "بها تمطر"، "شرب الطفل للين/ الحليب")

§ وظيفة تفاعلية: وهي التفاعل مع الآخرين interpersonal (تأسيس علاقات مع الآخرين أو ترسيخها أو إعادة صياغتها: "يا سيدي"، "يا بني")

§ وظيفة نصية: وهي إنتاج النصوص والخطبات، وتنظيمها، ودرستها textual (الكلام أو الكتابة عن الكلام أو الكتابة - اللغة للشرحة، ووسقل تنظيم الخطاب: "في المفرة لسنه")

يرتكز تمثيل الواقع في الأساس على التعبية أو التحدّي transitivity، وهي ليست مجرد خاصية في الفعل في تعارض مع لزومه، بل هي خاصية في الجملة بأكملها. وتتكون الجملة كذلك من المشاركين في الفعل وظروفه. في "هنا محمد عليا بنجلحه فسن"، الفعل فعل الفهننة، والمشاركان هما "محمد" و"علي". وظروف لفعل تشمل السبب والزمان. من هنا تكون البداية - من الفعل، أو ما يقع أو يحدث. تنقسم الأفعال والحالات والأحداث في نسق هليداي (١٩٨٥) إلى:

- § فعل كينونة وصيرورة أو تحويل (فعلال بمسند) relational مثل "يبدو"،
 "يصبح"، "ما برح"، "ما زال"، "والقي"، "وجد".
- § فعل مادية material مثل "ضرب"، "قتل"، "كسر"، "اغتل"، "صدم".
- § لفظية/ كلامية verbal مثل "هنا"، "تأدى"، "حيا"، "وكتب"، "خط".
- § ذهنية نفسية mental مثل "يحب"، "يكره"، "يصدق"، "يشعر"، "يخشى".
- § فعل سلوكية behavioral مثل "ضحك"، "يبكي"، "يهنس"، "يصم".
- § فعل وجود(ية) existential كما في "على الطاولة كوب"، "هناك قصور واضح".

لا تحظى فعل الكينونة والوجود في اللغة العربية بنفس الحظ من التناول الذي نجده في الإنجليزية، لأنها في جملة الأحوال تقديرية، فحين نقرأ "على الطاولة كوب"، ندرك أن تقدير الكلام "يوجد كوب على الطاولة" - هذا إذا دعت الضرورة إلى التقدير. فسي "رقه ما فعلت"، المشاركان هما أنت وهو، ومن خير الفعل هو هو. وما كنز له الأثر هو ما فعلت أنت. وفي "اعجبتني قصيدتك"، المشاركان هما أنا وأنت. والفعل هو الإعجاب. ومن خير الفعل هو أنا، وما أحدث الأثر هو قصيدتك.

المبدأ التعاوني

يعدُّ المبدأ التعاوني Cooperative Principle في الحوار. وفذي قنمه بول جريس Grice (١٩٧٥)، ركيزة أساسية من الركائز التي تقوم عليها التداولية. وداة مهمة من أدواتها هي أن. ونقسم هذا المبدأ إلى أربع قواعد على من يستخدم اللغة سباعها إذا أراد أن يكون "متعاوناً". علينا أن نتذكر أن المبدأ التعاوني يصف ما ينبغي أن يكون، لا ما هو كائن بالفعل في مجمل الحوارات والتفاعلات الاستمعية. لذا فواعده الأربع فهي:

§ الكمية / الكم Quantity: قنم القدر المطلوب من المعلومات، لا أكثر ولا أقل. "خير الكلام ما قل ودل". تتعلق هذه القاعدة بمقدور المعلومات أو كمها، لا بصحتها أو ملائمتها.

§ الصق / الكيف Quality: كن صادقاً، لا تقدم مطومات خاطئة، نو مطومات لا تستطيع أن تبرهن على صحتها. "الصق منجاة". "الأمانة فضل الطرق". كما تقول الحكمة الإنجليزية.

§ الملازمة Relation: لنكن معلوماتك ومساهماتك ملازمة للحوار. فلا تخرج عن الموضوع، لأن "كلّ مقام مقالاً"، و"كلّ حلثة حديث".

§ الطريقة Manner: كن واضحاً ومنظماً، وتجنب القوض والرتابة، وخطب الناس على قدر عقولهم وتخصّصاتهم وخلفياتهم المعرفية - وليس "معرفة الخلفية" background knowledge، كما تذهب بعض الترجمات.

فيما يلي نماذج لتوظيف المبدأ التعاوني لتحقيق غايات تواصلية (مزيد، ٢٠٠٢). في الرصة العربية ألف ليلة وليلة، (الجزء التاسع، ص ٦٣٤) تحكي شهرزاد لشهريل - بداية من الليلة الثامنة والمستين بعد المائة الثالثة حتى الليلة الحادية والثمانين بعد

لمعة الثالثة - حكاية (أتمس الوجود مع محبوبته الورد في الأكام) وفيها نجد "أتمس الوجود" هتماً مضطرباً بعد أن حول بينه وبين محبوبته "الورد في الأكام"، "و بينما هو كذلك إذ خرج عليه سبع رقبته مختنقة بشعره، ورأسه قدر القبة، وفمه توسع من الباب. وفيه مثل ألياب الليل، فلما رآه أتمس الوجود أيقن بالموت واستقبل القبة وتشهد واستعد للموت. وكان قد قرأ في الكتب أن من خدع سبع خدع له. لأنه يندفع بالكلام الطيب وينتشي بالمديح، فشرع يقول له: يا أسد القبة. يا لبث الفضاء. يا ضرغام. يا أبا الفتيان، يا سلطان الوحوش، أني عاشق مشتق. وقد تلفني العشق والفرق. وحين فارقت الأحباب غبت عن الصواب. فسمع كلامي ورحم لوعتي وغرامي".

يتحتم على قارئ هذه القصة أن يتحلى بقدر كبير من التسامح لمعرفة حتى يصنع وصف الأسد، وحتى يصنع ما قالته الكتب لأتمس الوجود من أن "من خدع الأسد خدع له". "لأنه يندفع بالكلام الطيب" وحتى يتعاطف مع استعطاف أتمس الوجود السبع أن يسمع كلامه ويرحم لوعته وغرامه.

من الواضح أن أتمس الوجود في أزمة حقيقية: "أيقن بالموت واستقبل القبة وتشهد واستعد للموت". إزاء هذه الأزمة الطارئة، يقرر أتمس الوجود اللجوء إلى حيلة لغوية تقوم على ركنين أساسيين هما: المديح والشكوى. يبدأ أتمس الوجود بلسباغ القلب "أسد القبة" و"لبث الفضاء" و"ضرغام" و"أبي الفتيان" و"سلطان الوحوش" على الأسد. ثم ينتقل بعد ذلك إلى الشكوى مما يجد: "أنني عاشق مشتق. وقد تلفني العشق والفرق. وحين فارقت الأحباب غبت عن الصواب". مستعيناً بالسجع والتجسس الصوتي. ثم يأتي في النهاية الرجاء والاستعطاف. وقد فتم أتمس الوجود لنفسه بأن قرن قوة الأسد وجبروته بضطه هو ولوعته وعذابه، والحقيقة أن هذه الخلطة المسرحية لم تحقق لأتمس الوجود مجرد النجاة من الموت المحقق. بل دفعت الأسد إلى التعاطف معه ومساعدته في الوصول إلى مكان حبيبته "الورد في الأكام": قام الأسد ومشى نحوه بلطف، وعيناه مغرورتان بالدموع. ولما وصل إليه لحسه بلسبته.

ومشى قدميه وأشار إليه أن اتبعني، فتبعه". بالطبع لم يكن هدف "قوس الوجود" الأسلمي مدح الأسد، بل كان هدفاً من وراء المدح أن يستدر عطف الأسد، فينجو منه؛ لم يكن يطمع في أكثر من هذا، ولكنّ القشاء مع الاستطاف كانت لهما آثار أخرى إيجابية كما رأينا، لو صدقت شهرزاد فيما روت. فلنا أن نؤمن بأن حب القشاء ليس طبيعة الإنسان وحده بل طبيعة الحيوان كذلك. هكذا نرى أن في هذه القصة - وفي ما يشابهها من أمثولات - خرقٌ صريح لقاعدة الصدق في المبدأ فتعلوني بفرض الإهلات من برائن الأسد.

ومن نوافر لشعب: (١) "قالت صديقة أشعب لأشعب: هب لي خاتمك أذكرك به، قال: فكري في منعك إياه فهو أحب إلي"، (٢) "وجئت امرأة شعب دينارا فقلت به، فقال: فقصه لي حتى يلد له في كل أسبوع درهمين. فلما كان الأسبوع الرابع، طلبته منه فقال لها: مات في النفاس، فقلت: ويلي عليك كيف يموت الدينار؟ فقال لها: الويل لك، على أهلك، كيف تصدقين بولائته وتكررين موته في نفسه؟" (عباس، ١٩٩٠، ص ص ٢٦-٢٧).

تخلص

"وسنذكر في كتابنا هذا أن شاء الله تعالى من تخلص من قسوة الهلاك وتغلبت من حبال المنية، بحسن الاتصال، ولطيف التوصل، ولين الجواب، ورقى الاستعاب، حتى علت سياته حسنات، وعرض بالثواب بدلا من العقاب. وحفظ هذا الباب، لوجب على الإنسان من حفظ عرضه، وأزعم له من قوام بدنة" (العبد للفريد لابن عبد ربه الأسلمي، نسخة موقع الورق، ص ١٣٠).

في ظاهر الأمر، يتصادم "أشعب" مع صديقه وزوجته، لكن الحقيقة أنه يوقع كلا منهما في شرك لغوي معرفي للخروج من مأزقين، المأزق الأول هو تهديد ملكيته خاتمه، والثاني هو تهديد ملكيته للدينار الذي حصل عليه من زوجته بالتحايل. للخروج من المأزق الأول، يستفيد "شعب" من تحايل صديقه عليه؛

فهو يزعم أن هدفها من الحصول على خاتمه هو أن تتكره به، حينئذ يختار لها "شعب" طريقة أخرى تتكره بها، المهم أن رغبته في أن تتكره سوف تتحقق. هي

تريد أن تذكره بالمنع، وهي بفضل أن تذكره بالمتع. لذا زوجة "نשב" فقد صنعت أن الدينار يمكن أن يلد كل أسبوع درهمين عندما كانت لها مصلحة في ذلك، وعندما افقت من الكذبة، بدلت تطلب الدينار، ولكن نשב ساعتهما يسألها سؤالاً لا تملك إجابة إلا السكوت والتدم على الدخول في الكذبة من قديمة. لأن الزوجة فهمت في بداية الأمر أن زوجها سوف يستثمر الدينار فيربح كل أسبوع درهمين، ولكن "نשב" في مواجهة الأزمة يتمسك بالمعنى الحرفي البيولوجي لفعل "يلد" - وطالما أن الدينار يمكن أن يلد، فيمكن أن يموت في النفاس - ولسان حاله يقول لها: تطلعت عليك الأولى، فلماذا لا تصدقيني في الثانية؟ كذب بكذب. لا يبرز "نשב" ولا يفسر. ولكن ينكر على زوجته تكنولوجيتها وكيها بمكيالين، ويتحقق له هدفه الأساسي، وهو الهروب من مطالبة الزوجة بالدينار الذي "ملت".

ومن نوابر جحا: "كان جحا ماشياً في الصحراء. فرأى ثلاثة فرسان من قطاع الطريق على بعد، فخاف وخلع ثيابه وأدخلها لحد القبور الخفية. لما وصلوا رنوه عريفاً، فقلوا له: من أنت؟ فقال: أنا ميت من جملة الأموات في هذه القبور. وقد خرجت الآن للنزهة وشم الهواء، فضحكوا منه وتركوه". (ابن الجوزي، ص ص ٦٢-٦٣). تنقسم هذه القصة إلى أربعة أجزاء هي: موقف الأزمة، والتخطيط للتحويل، والمواجهة، والنتيجة. أما الأزمة فهي التهديد الواضح لحياة وممتلكات جحا، ويبدو أنه كان مخرجاً محتملاً، حيث بدأ فوراً تجهيز الديكور والمناظر حتى وصل قطاع الطريق إليه، فوجدوه عريفاً، وقالوا له من أنت؟ يبدو أن جحا كان يعتقد - لو كان يريد للصوم أن يصدقوا - أن التجرد من الملابس والقولاد في دائرة المقابر كافين لإثبات الموت. على هذا الاعتقاد أسس جحا لحيلته في التخلص من قطاع الطريق. تتلخص هذه الحيلة في محاولة تحقيق ثرين أحدهما قريب، وثاني بعيد. لذا الهدف القريب، فهو أن يصنع قطاع الطريق أنه "ميت من جملة الأموات"، والهدف البعيد هو ببساطة أن يتركه للصوم.

هذا ما تقرّره

كورين دينويل

في Denoyelle

تحليلها فتحليل في

حكايت الشطر،

حيث نرى أن

خطاب التحليل

يسمى إلى تحقق

ثر معرفي تنقل

فيه الضحية إلى

تصديق faire

croire، وهنك

واقعي عملي تنقل

فيه الضحية إلى

لفعل والتصرف

faire faire

(دينويل، ١٩٩٨).

لم يصنق قطاع

نطريق - بطبيعة

فحل - أن جحا

"ميت من جملة

الاموات". كيف

يصنقون هذا وهو

يكلهم؟ وكيف

لظم والأكب

يبقى المبدأ التعاوني صالحاً للتطبيق المباشر على خطاب
الظوم والرياضيات. وما شبيههما. وذلك لاهتملهما
بالبرهان، والفك، والملاعبة، ولوضوح، وترتيب، أما فيما
يشغل خطاب الأكب، وما يحفل به من استعارات، وكتابات،
ومبالغات مقصودة، وغموض وظيفي، ورطقة مضرة
(تتناولها فيما تتناول التداولية اللمينة أو الاسلوبية -

(pragma-stylistics أو literary pragmatics

وخطاب السياسة، وما يحفل به من تحمين، وتجميل،

وتشويه، وكيسة، وتضليل، وتضمن، وفراض، وكذلك

الدعاية والإعلان، فتكمن أهمية المبدأ التعاوني في أنه لية

مهمة من قيات التحليل، لأن قتهلكته تشي، وتسوحى،

وتعجز، وتنقل تضمينات، وتعكس ظروفًا وسيفات، كما نجد

هنا من مناقشات، بعبارة أخرى، وعلى سبيل التبسيط،

نتحقق للغة العلم نجاعتها من خلال قترامها قواعد المبدأ

التعاوني، أما لغة الأكب وما يشبهها، فيوسعها أن تحقق

قبرا كبيرا من تأثيرها من خلال قتهك هذا المبدأ، وليس

من الممكن تصور حياتنا اليومية وما فيها من حوارات -

وكم سنخسر من الأصدقاء والزملاء - ونحن نطبق المبدأ

التعاوني تطبيقاً "رياضياً" مجرداً نون مراعاة أو قجمل

(فنجيب عن سؤال "كم الساعة؟" بكلمة واحدة مثل

"العاشرة"، وعن سؤال "كيف حالك؟" بعبارة واحدة من قبيل

"بخير"، ونسنى القبح قهبها نون موراة أو تنطف،

وننجذب الاستطراد، نون أن نكرث لاتهم قلس بقا

بالفتور أو الغرور، ولا نقول إلا القليل، حتى ونحن نصطح

بين متخصصين.

لعل هذا القباين بين المبدأ التعاوني بوصفه مجموعة من

القواعد المثالية المجردة، وبين مبرزات وواقع قتهك تنك

القواعد في الواقع هو بعض ما يؤخذ على هذا المبدأ، وهو

كذلك ما استوجب تطوير نظرية تفسر قتبين وتشرح

لمعبررات والدوافع هي نظرية الكيسة، كما يرد لاحقاً في

هذا التبسيط، كيف نقف على ما وقع من قتهك وكيف

ننوصل إلى تفسيره وتبريره؟.

يصدقون أن الموتى يخرجون للزفة وشم الهواء؟ لكن يبدو أنهم تعاطفوا مع خوفه وضحكوا من سذاجة حيلته - مذاجتها الظاهرية على الأكل، وإن لم يتعاطفوا، فما الذي كان يمكن أن يلغثوه من رجل "عريان" يسكن القبور؟ لكل هذه سذاجة، ولكل هذا المكر، نحبُّ جحا وننتعج أخباره.

ومن أمثلة الحيلة وحسن التصرف كذلك:

(١) "بلى أن رجلين سمعا بمؤمن إلى فرعون ليقتله، فلحضرهم فرعون قائل للساعين: من ربكما؟ قالوا: أنت. فقال للمؤمن: من ربك؟ فقال: ربي ربهما. فقال لهما فرعون: سمعنا برجل على ديني لأتله: فقتلتهما".

(٢) "متحن ابن أبي داود الحارث بن مسكين أيلم المحنة فقال له: شهد أن القرآن مخلوق، فقال الحارث: أشهد أن هذه الأربعة مخلوقة، وبسط أصابعه الأربعة وقال: فتوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فتخلص".

مزال عنصر "الآزمة" حلضرا في هذين الموقفين. في القصة الأولى يشي رجلان من اتباع فرعون برجل مؤمن، وعندما يكون الثلاثة بين يدي فرعون، يكون السؤال المنطقي: من ربكم؟ بتحليل الرجل المؤمن للخروج من هذه الآزمة الحقيقية بالثقة، فإجابته "ربي ربهما" صحيحة وصانقة على مستويين: على المستوى الأول، سوف يربط فرعون بين إجابة الرجلين "أنت" - فرعون - ولجنة الرجل المؤمن: "ربي ربهما"، وقد قال أن ربهما أنت، إذن ربي أنت، لا شك إذن في يمين فرجل فرعون - كما فهم فرعون. على المستوى الثاني، يقرر الرجل المؤمن أن ربه رب الرجلين، وهو صادق في هذا في نظر نفسه.

وقد كتبت نتيجة الثقة باهرة، فقد نجا الرجل المؤمن، وفشل المتلمصون. لنا الحيلة اللغوية في القصة الثانية، فتكمن في الإرتولوجية الدلالية لاسم الإشارة "هذه"، حيث تنفي في وقت واحد: "هذه الأصابع الأربعة"، وكذلك "هذه الكتب الأربعة" - التوراة والإنجيل والزبور والفرقان". ما يحدث هنا، وفي حالات كثيرة مشابهة، هو غشوض مقصود وبهام موظف وانتهاك قاعدة "الطريقة"، حيث تفنقد كلمة "هذه"، ومن قبلها

”رهبهما“. الثقة والتحديد، ويبدو هذا الانتهاك ضرورياً في ظل رغبة الرجل المؤمن في القصة الأولى والحارث بن مسكين في الثقة في تحقيق غايتين متعارضتين وهما: تجنب الكذب وتجنب الصدم المبلثر مع فرعون في القصة الأولى. ومع ابن أبي دلود في الثقة.

ومن نمطة توظيف قواعد المبدأ التعاوني كذلك ما لا حصر له من تورية. وفكاهة. واستعارة. وغوض. وكذب مقصود. وتحسين قبيح. أو تقبيح حسن. ومدراة. ومواربة. وتنظية. ونصية. ورطاة. ومبالغة. واستطرادات. وخروج عن النص. يبدو أن قيمة المبدأ التعاوني لا تكمن في محاولة اتباعه أو التقيّد به، بل فيما يشي به قنصله وتجاوزة، عن قصد أو غير قصد، من غايات بلاغية أو شعرية. أو سياسية. أو ترويجية – مع ملاحظة أن ”لو“ لا تفصل بالضرورة بين متعارضين أو متناقضين. ولهذا يبقى المبدأ التعاوني أداة ملائمة ومهمة في تحليل الخطاب ولغويات النص وتحليل الخطاب النقدي وتحليل الخطاب السياسي. ومما يحسب للمبدأ التعاوني كذلك أن تأسست عليه نظريات التلاعب والكياسة، التي ترد مناقشتها لاحقاً. على سبيل توضيح ما غمض من جوانبه أو استكمال ما نقص منها.

التضمين

لننظر لاحتقنا في الأمثلة السابقة أن خرق قواعد المبدأ التعاوني يحق غلبت توصيلة بلاغية. بل يحدث تأثيرات ماثية في الواقع. كلما انتهك القالب أو المتكلم قاعدة من قواعد هذا المبدأ، دل ذلك على شيء ضمني لا يرد التصريح به. لعذر أو قهر أو غيبة، فكثر أهمية من مجرد التصريح. من هنا نصل إلى التضمين أو الإضمحلال Implicature الذي يقارب ما وصف الجاحظ في البيان والتمهيد بالكتابة. لكنه لا يشبه في شيء تطلق آخر البيت من الشعر بلول البيت الذي يليه. ولا تقتبس جزم من نص في نص غيره.

حتى يستطيع السامع أو القارئ أن يتوصل إلى المعنى الضمني، لا بد أن يأخذ في الحسبان ما يقل بالفضل، وما يحيط به من سياق، وقواعد المبدأ التعاوني التي يفترض أن يراعيها الطرفان. على سبيل المثال، حين تسأل عن إعدادهن هذا السؤال "كم تبلغ من العمر؟" فيجيب أحدهم عن السؤال "إنها متروجة ولديها طفلان"، ربما دل ذلك على عدم معرفته عمرها. هنا يلجأ السائل إلى السياق الاجتماعي الذي يشتمل على معلومات عن السن الطبيعي للزواج والإنجاب في مجتمع معين. وربما دل تجاهل أو خرق قاعدة من قواعد المبدأ التعاوني على رغبة المتكلم في حفظ ماء وجهه أو وجه غيره. فيصبح للتجاهل أو الخرق نوعا من التخابر واللباقة. وعلى هذا تلمست أطروحات جيلري لوتش (Leech) (١٩٨٣) التي ترد مناقشتها لاحقا.

في نفس هذه الفئة من المسكوت عنه أو التضمين ينتمي الافتراض المسبق Presupposition والمعلوم من اللفظ أو العبارة بالضرورة Entailment. من أمثلة الافتراض المسبق:

§ "ذهب الولد إلى المدرسة": تفترض مسبقا أن هناك ولدا وهناك مدرسة؛ "لحرب على الإزهاق": هناك "حربا" وهناك "إزهاقا". هنا، وفيما يلي من افتراضات مسبقة، يبقى الافتراض حتى إذا تحولت الجملة من الإثبات إلى النفي - "لم يذهب الولد إلى المدرسة".

§ "لماذا يكرهوننا؟" (من خطاب بوش عقب ٩/١١): تفترض مسبقاً أن المسلمين يكرهون الولايات المتحدة.

§ "لتطرف الإسلامي خطر يهدد الغرب": تفترض مسبقاً أن هناك تطرفاً إسلامياً؛ "هزيمة الجيش ... الباسل": هناك جيش ... وهو "باسل".

§ "أعلم أنه مخاطرة كبيرة" (من خطاب الرئيس المصري للراحل أنور السادات أمام الكنيست الإسرائيلي): تفترض مسبقاً أن السفر إلى إسرائيل مخاطرة كبيرة.

§ "عملية السلام في الشرق الأوسط تحتاج دفعة قوية": تفترض مسبقاً أن هناك شرفاً في وسط وهناك عملية سلام.

§ "لا بد أن تتوقف عن الإساءة إلى جيرانك" - تفترض مسبقاً أن المخاطب يسمى في جيرانه.

§ "لحمل إليكم رسالة شعب مصر الذي لا يعرف التعصب" (من خطاب الرئيس المصري للراحل أنور السادات أمام الكنيست الإسرائيلي) - تفترض مسبقاً أن شعب مصر لا يعرف التعصب.

§ "عد الممستشرق إلى الجزيرة العربية": تفترض مسبقاً أن الممستشرق كان في الجزيرة العربية، أو زارها من قبل؛ "عادت الفتنة تظل بوجهها البغيض": تفترض مسبقاً أن هناك "فتنة"، وأن لها وجهاً بغيضاً، ولو على سبيل الاستعارة، وأنها اطلت من قبل.

§ "الفتنة نعمة لعن الله من ليقظها" تفترض مسبقاً أن هناك "فتنة" "نعمة" وأن لحداً قد ليقظها أو ربما يوقظها.

§ "اغلق الباب" - تفترض مسبقاً أن المتكلم لديه صلاحية إصدار الأمر. ولعل العلاقة بين المتكلم والسماع تمنح الأول هذه الصلاحية دون هيمنة أو قهر.

§ "ثم نشعر بأي قدر من الإشفاق على الرئيس الأمريكي جورج بوش عندما عرفت أنه سوف تحاوره مذبحة مصرية تتفوق عليه في مستوى الفناء بلفارق شلغ" (تصار عبد الله "منى وبوش". المصريون، ٢١ مايو ٢٠٠٨): تفترض مسبقاً أن للإشفاق

درجت. وإن بوش موجود وهو "فرنيس الأمريكى" - هكذا كن - وإن "منظمة
 مصرية" سوف تحاوره، وأنها "تتفوق عليه في مستوى الذكاء بفارق ضخم".
 يشير الافتراض المسمّى، إذن، إلى التسليم بصحة مقولة أو فكرة. ودعوة المسمع أو
 القارئ إلى التسليم بها، بينما ينشغل بتلقي خبر أو إستد آخر. في "عملية السلام في
 الشرق الأوسط تحتاج دفعة قوية"، الخبر هو جملة "تحتاج دفعة قوية". بينما نتلقى
 هذا الخبر. ونسأل: هل هي حقاً تحتاج دفعة قوية. لا نسأل: هل هناك حقاً عملية
 سلام في الشرق الأوسط؟ وهنا يكمن الخطر الجسمي، إذ يستخدم المناسة والمروجون
 والدعويون ما لا حصر له من الافتراضات المسبقة لتعمير مقولات أيديولوجية
 ملتبسة. وكان علينا حين نطالع جملة من قبيل "التطرف الإسلامى خطر بهذا القرب"
 أن نسلّم بوجود "تطرف إسلامى" بينما ننشغل بتلقي خبر تهديده الغرب.
 أما المعلوم من مكتوب أو ملفوظ بالضرورة فهو أنه تصلفاً بالمكتوب أو الملفوظ،
 وربما لهذا السبب لا نجد له نفس التأثيرات البلاغية التي للتضمنين. ولا نفس الأهمية
 في دراسات تحليل الخطاب. إذا قلنا إنّ علياً لديه ثلاثة أولاد، فمن المعلوم بالضرورة
 أنّ له ولد وولدين، ومن المعلوم بالضرورة أنه تزوّج مرة واحدة على الأقل. على
 أننا لا ينبغي أن نخل السباق، لأنّ ما هو معلوم بالضرورة في ثقافة ما، ليس موطوماً
 بالضرورة في غيرها دائماً، فليست كل الثقافات تضع الزواج شرطاً للتأجب.

ماذا نفعل بالكلمات؟

إن لصاحب الحق مقالاً

"حدثنا مسند، حدثنا يحيى، عن شعبة، عن سلمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم رجل يتقاضاه فاعظ له فهم به أصحابه. فقل دعوة قبل أن لصاحب الحق مقالاً. وقال عمر بن الخطاب الحنفى عند الشروط، ولك ما شرطت. وقال المنصور سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ذكر صهراً له فالتى عليه في مناهرته فلحسن قل حدثني وصنقي ووعني قوفي لم" (صحيح البخاري).

دعكم الكلام أربع

"وقال أبو ربيع نكتبه: اعلم أن دعكم المقالات أربع، إن التمس لها خصة لم توجد، وإن نقصت منها واحدة لم تتم. وهي: سؤلك الشيء، وسؤلك عن الشيء، وإخبارك بالشيء، وإخبارك عن الشيء. فإذا طلبت فلسج، وإذا سلكت فلوذج، وإذا امرت فالحكم، وإذا أخبرت فحقق. ونجمع الكثير مما نريد في قليل مما نقول" (العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الورق، ص ١٧٥).

لم يكن جون أوستن، أو جون سيرل من قبله، أول من تناول اللغة بوصفها فعلاً له تأثيره وشروط نجاحه. لكن نظرية أفعال الكلام **Speech Acts** (والكتابة كذلك)، التي لنس لها الأول وطورها الفاني، هي التي ألقت الضوء على هذا الجانب من اللغة ووضعت في بؤرة اهتمام الباحثين، وجعلته ضرورة لازمة في دراسة اللغة، وكرست فرعاً مهماً من فروع علم اللغة هو فلسفة اللغة. وما زل لهذه النظرية أثرها الفاعل في كل ما تلاها من مقاربات لغوية. وهي فصل مهم في تحليل الخطاب، وتحليل النص، وتحليل الحوار، وتحليل الخطاب السياسي **Political Discourse Analysis**، وتحليل الخطاب النقدي (فرايديكي) **Critical**

Discourse Analysis، والأسلوبية **Stylistics**.

تشمل المقولات والأطروحات المؤسسة لهذه النظرية تمييزز فوسطن (١٩٦٢) بين نوعين من الجمل، لو الملفوظات، يقتصر الأول على الوصف أو التقرير constatives (مثل: "تناولت طعام الإفطار"). بينما يتجاوز الثاني ذلك إلى الأداء والإيجاز أو الفعل performatives (من قبيل: "أعذر". "فتح الباب من فضلك"). بل يرى بعض شراح النظرية أن كل التلغظات والجمل هي في نهاية الأمر فعل. حتى التقرير والوصف والإخبار أفعال، مثلها في ذلك كمثل الأمر. والاعتذار. والتسمية. والمنع. والممنوع. وما إلى ذلك. ومن المقولات المؤسسة للنظرية كذلك تصنيف فوسطن جوبس التلغظ أو الجملة إلى ثلاثة هي:

١. الصيغة locution - ظاهر التلغظ

أو الجملة، أي نطقها أو كتابتها.

٢. المعنى المقصود illocution - ما يريد المتكلم أو الكاتب أن ينقل إلى المتلقي.

٣. التأثير perlocution - رد فعل المتلقي. وصول رسالة من عدمه.

هنا ينبغي أن نلاحظ أن العلاقة بين الصيغة والمعنى المقصود ليست مباشرة أو شغلة في كل حال. لناخذ مثلاً سؤالك من أحد أصدقائك على الهاتف "هل والدك موجود؟". من الواضح أنك لا تنتظر مجرد إجابة بنعم أو بلا، بل تريد أن يفهم الابن أنك تريد أن تتحدث إلى والده. إذا أجابك الابن بنعم ولم يعط، فقد توقف عند

اللغة والبيسبول

"لغة نظرية في لغة لا بُد أن تكون جزءاً من نظرية في الفعل؛ لمسيب بسيط، ألا وهو أن الكلام نوع من الملوك الذي تحكمه قواعد وقوانين. ولأنه ملوك تحكمه قواعد وقوانين، فإن له سمات شكلية يمكن دراستها في صورة مستقلة. غير أن دراسة تلك السمات دون دراسة نورها في إيجاز ولقاء فعل لغة يشبه دراسة فصلات وانظمة الانتماء في الاقتصاد دون دراسة نور تلك الفصلات والانظمة في المعاملات الاقتصادية. إن هناك الكثير مما يمكن أن يقال عن لغة دون التعرض لما تتجز من فعل. غير أن مقارنة شكلية مجردة كهذه تبقى حتماً منقوصة، وكنتنا ندرس فييسبول كمجموعة من القواعد وقوانين المجردة، لا بوصفها لعبة من الألعاب (سيرل Searle، ١٩٦٩، ص ١٧).

لمضى الظاهر المباشر لما قلت، وإذا فهم أنك تريد أن تتحدث إلى والده. فقد حققت ما كنت تبحث من وراء مؤلفك.

من هذه المنطلقات ننقل إلى تصنيف الأفعال التي تؤذيها اللغة. أو التي تؤذيها نحن باللغة. وفيما يلي تصنيف ميرل (١٩٦٩)، الذي يتألف من على تصنيف لوستن (١٩٦٢). هذه الأفعال، حيث نستطيع باللغة أن:

§ "تفرز"، "تغفل"، "تجزم"، "تخير"، "تختتم"، "تفر"، "تنتكر" - وكلها تنتمي إلى فئة الإخبار أو التقرير أو تمثيل الواقع Representatives. والمصطلح الإنجليزي أصله للفعل represent ويعني "يمثل"، أو "يعرض".

§ "تأمر"، "تنهى"، "تطلب"، "ترجو"، "تأمل"، "تتوسل"، "تتضرع"، "تدعو"، "تصر"، "تلج" - وكلها تنتمي إلى فئة الأمر والنهاي Directives. والمصطلح الإنجليزي أصله للفعل direct ويعني "يوحى"، أو "يأمر".

§ "تعد"، "تتعهد"، "تلتزم"، "تلتزم"، "تلتزم"، "تلتزم"، "تلتزم"، "تلتزم" وزرا أو مسؤولية. أو "تأخذ على عاتقنا" - وكلها تنتمي إلى فئة التعهد أو الالتزام Commissions. والمصطلح الإنجليزي أصله للفعل commit ويعني "يلزم"، أو "يلتزم".

§ "تعتز"، "تلف"، "تنهى"، "تعز"، "تشكر"، "ترحب"، "تشكو"، "تمدح"، "تندم"، "تجامل"، "تلتطف"، "تندم"، "تمن"، - وكلها تنتمي إلى فئة التعبير أو البوح Expressives. والمصطلح الإنجليزي أصله للفعل express ويعني "يعبر".

§ "تعلن" (حرباً مثلاً)، "تزوج"، "تطلق"، "تسمي"، "تحكم"، (بغرامة مثلاً)، "تشهد"، "توقع (عقداً)"، "تعين"، "تفصل" من الفصل، "تمنح" لقباً، أو درجة، "تبيع"، "ترهن"، "تفرض" - وكلها تنتمي إلى فئة الإعلان، أو المنح والمنع Declarations. والمصطلح الإنجليزي أصله للفعل declare ويعني "يعلن"، أو "يصدر".

حتى تتحقق لهذه
الأفعال نجاحها
وصلاحيتها *felicity*.
لا بد أن تتوفر بعض
شروط والمقدمات
التي يصنفها سيرل
(١٩٦٩) في: شروط
تمهيدية
preparatory (كل
يكون لمن يؤدي الفعل
صلاحية ذلك أو
سلطته، فالدائم أن
يفتقري، وللقاضى أن
يحكم، ولصاحب الحق
أن يتكلم، على الأقل
في عهد كعهد الرسول
صلى الله عليه وسلم،
وللمعاون أن يزوج،
وللوفدين أن يسميا،
وليس للمجنون أن
يشهد، وللقاتل أن
يحكم أن يظن الحرب
- طالما كان مستوره
بخوكه هذا الحق)،

الإشياء:

بذور نظرية أفعال اللغة في البلاغة العربية (١)

الإشياء هو ما لا يحتمل صفقا ولا كنيا. كالامر والتمني
والاستلهم والتمني والقضاء وغيرها. وينقسم إلى ظني
وغير ظني. الإشياء غير الظني هو ما لا يستدعي
مطلوبا غير حاصل وقت الطلب. وهو على قسمين: المدح
والذم والعهود. نحو "هت" و"وهبت" "مررتي طلق"
و"عدي حر" أو "أنت مفلوول". القسم نحو: "وافة"،
والتعجب، نحو "كيف هلت هذا العرض؟ وارجاء. أما
الإشياء الظني فهو الذي يستدعي مطلوبا غير حاصل
وقت الطلب - حسب اعتقاد المتكلم - وهو مجال علم
المعاني. وأنواعه خمسة: الأول: الامر. وهو طلب حصول
الفعل من المخاطب على سبيل الاستعلاء. ومن ذلك
الدعاء، والالتماس، والإرشاد، والتهديد، والتعجيز،
والإباحة، والتسوية، والتكريم، والامتياز، والاهلة
والدوام والتمني، والاعتبار والجن. والتخيير. والتكيب.
والتعجب. الثاني: قنهي. وهو طلب المتكلم من المخاطب
الكف عن الفعل، على سبيل الاستعلاء. ومن ذلك دعاء
والالتماس، والإرشاد والدوام. وبين العقبة، والتنبس.
والتمني، والتهديد، والفراصة، والتوييح. والتخفير.
الثالث: الاستلهم. وهو طلب الفهم. فيما يكون للمتكلم
عنه مجهولا لدى المتكلم. وقد يكون غير ذلك كالامر.
والنهى، والتسوية، ونفسي. والاكز. التثويق.
والاستئناس، والتغريض، والتحويل. والاستبعاد. والتعظيم.
والتخفير. والتعجب. والتهلم. وفوعيد. والاستبطاء.
والتنبه على الخطأ، والتنبه على ضلال الطريق.
والتحضر والتكثير. الرابع: قنهي. وهو طلب المحبوب
الذي لا يرجى حصوله، لاستحقاقه عقلا أو شرعا أو
عادة. والفرق بين التمني والترجي أن التمني يقي فيما لا
يرجى حصوله، ممكنا كان أم مستعيا. والترجي فيما يرجى
حصوله. الخامس: القضاء. وهو طلب توجه المخاطب إلى
المتكلم. وربما يسعى القضاء إلى تحقيق غايات أخرى
كالاستغاثة، والإغراء، والجزر. والتعجب. والتضجر.
والتنكر (الشيرازي، ١٩٩٧).

وشروط مصداقية أو إخلاص sincerity (أن يتحرى من يؤدي الفعل الصدق ويتجنب الكذب ما استطاع)، وشروط جوهرية essential (تشمل يعلامة الفعل للمسبق والموقف الذي يحيط به، فحين لا تشكر الناس إذا سبونا أو أهقونا - إلا إذا رأينا في ذلك ما يستحق الشكر، ولا نهين إلا بحدث سعيد، ولا نعد إلا بما يفيد).

ولعل مما يقض مضاجع كثيرين اليوم أن كل هذه الشروط والمقدمات شتتها دون مداراة أو خجل، في الإعلانات التجارية التي تزكم الأذنين، وفي فتوى من لا يطمون، وإلمة من لا يصلحون، وفي لأعاء المذعن، وتشقى المتشققين، وتهافت المتهافنين، وفي تحليلات أشباه المحللين، وفي فترويح لما يضر، وحجب ما ينفع، ربما لأن بعض البشر يجهلون ما تفعل اللغة في حياتهم وحياة غيرهم، وربما لأنهم يطمون.

اللغة فن تفعل، ويفعل بها ومن خلالها، وفيها، تتكلمنا (على معنى أنها تعبر عنا، فالمرء، بعبارة الإسلام على كرم الله وجهه، "مخبوء تحت لسانه فإذا تكلم ظهر") كما نتكلمها، وتشكلنا (على معنى أنها تشكل وعينا بالعالم، وبأنفسنا، وبالأخرين) كما نشكلها، وتؤثر فيها كما تؤثر فيها وبها ومن خلالها، ولهذا تظل نظرية فعل الكلام أو اللغة عند لوستن وسيرل فصلا مهما من فصول اللغوية، بل من فصول تحليل الخطاب، والتحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي، وكذلك الأسلوبية - تحليل لغة الألب أو التحليل اللغوي للألب، وهو فصل لا غنى عنه لكل من ينشغل باللغوية أو تحليل الخطاب - وجاراتهما ومثيلتهما وأخواتهما من الاتجاهات الوظيفية - ويسعى إلى فهم أو تحليل الخطاب في سياقاته وأنواعه المختلفة، غير أن فعل اللغة تكتسب أهمية خاصة عند تحليل النصوص الحوارية، من محادثات، ومسرحيات، وحوارات في الرواية أو القصة، وما إلى ذلك، لأن المواجهة مباشرة، وفي المواجهة تلعب اللغة أدوارها المؤثرة في حسم صراعات الأكر والمصلح والهويات والأهواء والانتماءات والولاءات - وربما في تأجيل هذه الصراعات أو تطبيقها أو تفاديهما.

الإشياء (٢)

هذا مجرد تلخيص لا يسعى إلى شرح الخير والإشياء في البلاغة العربية. بل يريد أن يلفت النظر إلى أن بذور التدولنية، بل ثمارها، كانت حاضرة في تلك البلاغة كما ذهب إلى ذلك كثيرون ومنهم مسعود صحراوي (٢٠٠٥) الذي يشير إلى أن لفعال الكلام قد جرى بحثها في ترثها للتقوي ضمن "نظرية الخبر والإشياء"، في مؤلفات عدد من البلاغيين العرب الذين أسوا لهذه النظرية من أمثال: عبد القاهر الجرجاني، وأبي نصر الفارابي، وأبي علي ابن سينا، والقاضي عبد الجبار المعتزلي. ونجم الدين الكشي القزويني، وأبي يعقوب السكاكي، وسيف الدين الأمدي، وشهاب الدين الفرافي، وفخر الدين الرزقي، وأبي إسحاق الشاطبي، والاسترلابي، وابن الحاجب، وابن يعقوب المغربي، وسعد الدين التفتازاني، وغيرهم ممن استعملوا أدوات التحليل المنطقية والتدولنية في تحليل الظواهر الأسلوبية وتطبيقها على أصناف من الخطاب العربي في طبقات معقلمية متميزة.

يشير صحراوي كذلك إلى أن ظاهرة الأفعال الكلامية عند الأصوليين، قد قسمت إلى نوعين أساسيين: لفعال كلامية منبثقة عن خبر، وفعال كلامية منبثقة عن الإشياء. مع إلحاح على تدولية ظواهر أسلوبية كثيرة بحثها الأصوليون والفقهاء مثل لفظ العقود والمعاهدات باعتبارها "فعالا كلامية" تتحقق فيها "الحمولة الإنجازية".

بلغتنا التعبير الأخير في الفقرة السابقة إلى مشكلة حقيقة تكثف تناولنا - نحن العرب - منجزات الغرب في مجال علم اللغة وغيره. ألا وهي مشكلة لترجمة، وإلى ذلك نرد إشارات أخرى في غير موضع من هذا التمهيد. ما الذي نضيه عبارة "الحمولة الإنجازية" لمن لم يطلع أصلها العربي؟ تنطبق المشكلة الثانية بتهافت مقولات السابق المعروف التي لم يعد لها محل من الاعراب إذا جاز التعبير.

لا ينبغي أن تكون الغاية هي إثبات سبق البلاغيين العرب في هذا الصدد أو غيره، بل ينبغي أن تكون الغاية مراجعة التراث البلاغي العربي، والتفيدة من منجزات اللغويات الغربية الحديثة في سبيل بلاغة عربية جديدة. ربما يبدو هذا قولاً مكروراً، لكن التكرار في هذا المقام واجب.

صدق الخير وكتبه

“وعليه، فتعريف البلاغيين الخير في الفرس البلاغي بأنه ما تضمنل صدق وفكذب - بزعمهم - تعريف غير متع لهذا... لرأيت لو أن شخصا نادى غيره، أو امره، أو نهاده، وهو لا يقصد ذلك إلا يكون كذاباً؟ بلى والله! فلماذا فكذب مخالفة لعمارة لمقتضى الواقع، وهذا منه: لأن المندى، أو الداعي، أو النقيب، أو المستغيث، أو الأمر، أو النهي... في نفر ما صنّوه في معنى الإنشاء، كل ذلك إذا لم يصانف إرادة في نفس المتكلم وقصدا فهو كذب محض. فالإنشاء فن - بهذا للمعنى الوجودي - يحتمل الصدق والكذب أيضا. وهل يتوَجّع لتوَجّع تغير وجه؟ وهل يستغيث المستغيث لتغير لزع؟ (فريد الانصاري: “كلمات الله في معركة السلام”، مجلة حراء، ع ١٦، ٢٠٠٩، ص ص ٣١-٣٤).

تفاعل لقوية سياسية - أمثلة مترجمة من دراسة عطونه (Atawneh ٢٠٠٨)

(١) “عرفت يطالب العرب بسرعة فتحرك لمساعدته في الخروج من مأزقه (Al-Quds Daily، ١٨ أبريل ٢٠٠٢). (٢) “ملك المغرب يدين السياسات الاسرائيلية باسم الاتحاد البرنمقي” (Al-Quds Daily، ١٨ مارس ٢٠٠٢). (٣) “إذا لم تتمسح من الكويت تسحبيا كاملا غير مشروط، فسوف تخسر الكويت واكثر” (من خطاب بوش الاب في صدام حسين، ٩ يناير ١٩٩٠). (٤) “وزير الأمن الاسرائيلي يقول: سوف نقتحم مناطقهم، ونحطم جهتر الأمن الفلسطيني، حتى ننتهي إلى تدمير السلطة الفلسطينية” (New York Times، ١٨ يونيو ٢٠٠٢). (٥) “شارون يقول: إسرائيل تريد أن تمحو حماس كقوة عسكرية سياسية قبل أن يحدث أي تمسح” (Al-Ahram Weekly Online، ١٦-٢٢ أبريل ٢٠٠٤). (٦) “شيمون بيريز يقول إن دم الرنتيسي لا بد أن يمسك تنكنا من مقاومة حماس وهجتها على اهداف إسرائيلية” (Al-Ahram Weekly Online، ٢٢-٢٨ أبريل ٢٠٠٤). (٧) “إسرائيل ترفض قرار الأمم المتحدة بشأن عرفات” (AP Online، ٢١ سبتمبر ٢٠٠٣). (٨) “حماس تنوّد بخطط الجنود” (Jerusalem Post، ١ فبراير ٢٠٠٤). (٩) “يقول الرنتيسي إن عمارة وقف إطلاق النار ليست من مفردات قنوس حركة حماس” (Jerusalem Post، ١٥ يونيو ٢٠٠٣). (١٠) “مسؤولون فلسطينيون يحذرون من محاولات إسرائيلية لاغتيال عرفات” (Xinhua News Agency، ٢٥ مارس ٢٠٠٤). (١١) “عرفات يلتبس من الولايات المتحدة لتتخلّ لوقف حمام الدم والجرائم الاسرائيلية” (Al-Ahram Weekly Online، ٢٢-٢٨ أبريل ٢٠٠٤). ومن نفس المصدر كذلك: (١٢) “السلطة الوطنية الفلسطينية تلتبس من لتسليح الأحمر اتقذ حياة الجرحى”. (١٣) “الفلسطينيون يلتبس من دول العالم لتتخلّ لرفع الحصار”. (١٤) “عرفت يطالب المملكة المتحدة بالمساعدة في دفع عملية السلام”. (١٥) “وزارة الأوقاف تستكر منع إسرائيل الفلسطينيين الوصول إلى المسجد الأقصى”. (١٦) “عرفت يستكر محاولة إسرائيل اغتيال الرنتيسي” (ومن ذلك أيضا لتعلل الشجب والإدانة والاستهجان، وغيرها، مما يملك قلوبو الحيلة، وربما غير ذوي المصالح، من لتسليح لقوية، ليس غريبا ما تنهى إليه عطونه وخلاصته أن الأقوياء - إسرائيل والولايات المتحدة - هم من يملكون صلاحيات لتقرير، وتنهيد، ولوعيد، أما الضعفاء والمستضعفون - ومنهم فلسطينيون - فلا يملكون إلا التمسك، والشجب، والإدانة، والاستنكار، وحين يطالبون أو يلحون، فمن قيل “لعمرك”.

التأدب والكياسة

"فتكذب" هي ترجمة غالي (١٩٩٦) لمصطلح politeness. وهي تتمجم مع ما نعرفه عن "فب الحوار"، و"الأداب والأخلاق"، و"فب الاءاء"، وغيره. ومع فتعابير اءرءة من قبيل: "ولء مؤءب"، أو "مءهءب"، و"قبيل فب"، و"كسة الفب"، و"فكذب" و"فكذب" و"فكذب". ولعل علفي اثر "فكذب" على "الفب" ءتى لا فءءلظ الأمر بفن الفب بفمضى الذى نءاوله هنا، والفب بفمضى الشر والمرءة والفروبة وما فبها. وربما ءر أن نءرءم الفمصلء الى "الفافة"، بفمضى "قول ما فلفق"، لكن فءرءة ربما فءفب بفالففة (بالباء لا الفاء) الفى فنى الفلافة الفوبة. وربما ءر أن فءرءم الفمصلء فى "فءهءب"، إلا أن الكمة لا فءبو فمساءة - على صفءها. وربما ءر أن فلبا فى "فكاسة"، بفمضى الفءل والفطنة، ومن ذك افءلر ما فلبب من القول. الفءلر الففر هو فءر فءرءم الفمصلء الفلفزفة رشافة ومساءة. لكنفى فءر فصرمة الفلاففة على الرشافة، ولءذا وقع الفءلر على "فكذب" - مع فكبوءه أو ففءفه بما فلبب من مرافاء وفق الفلءة أو الفضرورة.

قول فءر فمبءا الفكذب Politeness كما نعرفه فى الفءولفة الفربفة الفءبئة هو ما فءمءه روبن لفكوف Lakoff (١٩٧٣) - مع ملاءة فها من كءب عن المرأة والففة والففة والفرب، لكنها لفء جورء لفكوف الذى كان له نور مهم فى فءسة الاسءارة وبlosure ملاءمها والفوف فءلفلها، وفى فءلفل اسءارات الفرب. فءفء روبن لفكوف أن للءوار بطفر بفناءفن - مع فها لا فمءءم فءة الاسءارة - هما الفوضوء والفكذب be clear and be polite. وأن فمبءا فمءاونى الذى فوؤره ءرافس فء وفى ءق الفوضوء، لكنه لم فعر فكذب الفءملم الفلق به. من هنا، وففسا على الفطروءاء ءرافس، فوؤر روبن لفكوف فءرءها عن فكذب. وهو فءر الفطروءاء فنى فءاولها هنا فبءرا - وهءا بعض ما فؤءء علفه - وفكوف من فلاء فواءء فبرى هى:

§ لا تفرض نفسك (لو لرايك أو نوك) أو ثقمها على الآخرين Do not impose

§ اترك لغيرك حرية الاختيار Give options

§ اجعل الآخرين يشعرون بالبهجة والارتياح Make people feel good

هذه القواعد لا ترد في ادبيات الكياسة والتأدب الغربية الحديثة بوصفها "نظرية". لكن تبقى للمطربة وجهتها ومشروعيتها. إن هذه القواعد ثلاث تختصر جل ما جاء بعدها من تصورات، ويبقى لها فضل السبق والريادة.

ونستطيع أن نعيد صياغة هذه القواعد لو شرحها من خلال تصور مفاده أن التأدب يتراوح ما بين الإحجام والإقدام (وقد وجدتهما "الاحترار" و"التونز" في دراسة مجهولة المؤلف). ومساحة من الاختيار فيما بينهما. لننتصور مثلاً صديقاً أصابه القرد، ولنتصور ثلاثة ردود لفعال إزاء مرضه الفعرض: الأول. أن تتجنب صديقك حتى لا تشعه بالقصيق. وحتى لا يصدر منك ما يوحي بلك تخشى العوى؛ والثاني. أن تباعر بالمسؤول عنه، والتخفيف عنه؛ والثالث، بين هذا وذاك، بعض إحجام وبعض إقدام. ولنتصور قيساً على ذلك شخصاً فقد عزيزاً أو حبيباً، ولنتصور ثلاثة ردود لفعال إزاء ما أصابه: الأول، أن نتركه ولحزانه حتى لا نضاعفها؛ الثاني، أن تباعر بالمسؤول عنه والمواساة والتخفيف عنه؛ الثالث، بين هذا وذاك، بعض إحجام وبعض إقدام؛ أن نخفف نون إلحاح، وأن ننصح بالصبر نون وصاية أو تضيق.

كيف نختار ما بين الإحجام والإقدام؟

الإجابة عن السؤال تكمن في طبيعة العلاقة بين طرفي الحوار - هل هي جفاء ومسافة، أم حميمية وألفة. حين يتعلق الأمر بعزيز في قومه لا تربطنا به علاقة شخصية أو بمن لا نعرف، عادة نؤثر الإحجام. لكن حين يتعلق الأمر بصديق أو حبيب أو قريب، نؤثر الإقدام.

هذه القواعد

ليست علمة

على كل حال،

لكنها تخضع

لما لا حصر له

من اعتبارات

وعوامل تتصل

بطبيعة الموقف

وسياقه

واطرافه.

يصدق هذا

كذلك على ما

ذهب إليه

ليكوف في

موضع آخر

(١٩٧٥) من

أن النساء أكثر

كلمة من

رجل وفق

تعريفها

وتوصيفها

تختلف ،

فلمست كل

نساء أكثر

قوائد كل ما يجمعها كتاب

"فقيقت بخطي في الأعوام الكثيرة وجمعت من تلك قوائد كل ما يجمعها كتاب أو يحويها لغزتها وغربتها اذهب الا انها ليست مرتبة على مثل ولا مهذبة بطريقة ما تسج على منوال زنت ان الشخص منها انباء ما يدور مصر من الاثر البقية عن الاسم الماضية والقرون الخفية.. وتشر خلال تلك نكتا لطيفة وحكما بدعية شريفة من غير بطالة ولا كثرة ولا إحفاف مخل بفرض ولا اختصار بل وسط بين الطرفين وطريق بين بين فلهذا سميته...

وإني لأرجو ان يحظى ان شاء الله تعالى عند المنوك ولا بنو عنه طباع العامي والصطوك ويحبه العلم لمنتهى ويعجب به الطلعب المبتدئ وترضاه خلائق العابد لتناك ولا يحبه سمع الظليع الفلك ويتخذاه اهل البطالة والرفاهية سمرًا ويعده نالو لراي والتدبير موعظة وعبرا يستلون به على عظيم قدرة الله تعالى في تبديل الأبدال ويعرفون به عجب صنع ربنا سبحانه من تنقل الأمور من حال إلى حال. فإن كنت تحسنت فيما جمعت وأصبحت في الذي صنعت ووضعت فذلك من عظيم من الله تعالى وجزيل فضله وعظيم نعمه علي وجليل طوله وإن قال ما فيما فطنت واخطأت إذ وضعت فما لاجر الإنسان بالإساءة والعيوب إذا لم يحسنه ويحفظه علام الغيوب... فليقبل فانظر في هذا التلويح على مؤلفه ذيل ستره إن مرت به هفوة وليض تجوزا وصفها إن وقف منه على كبره أو نبوة فاي جود وإن على ما يكتو واي غضب مهند لا بكل ولا بنو لاسما والخطر بالافتكار مشغول والعزم لالتواء الأمور وتصرفها فخر محلول والذهن من خطوب هذا الزمن القطوب كليل والقلب لتوالي المحن وتوتر الاحن عليل.."(من لمحة الخطط المقريرية).

من الطريف ان نقرأ هذه الملاحظة في ضوء ما يرد في هذا الفصل من نظريات، فنرى ما فيها من توتر بين مدح الذات والكتب من ناحية، وتوسل إلى الله تعالى أن يحقق الكتاب ليقول وإلى القارئ أن يفتن الطرف عما يجد فيه من قصور من قنحية الأخرى، بين الوعي بما بذل المؤلف من جهد وتبرير ما يمكن أن يقع في الكتاب من قصور.

(أ) سوف نفتقد بل ولجأنا، أليس كذلك؟

(ب) بلى، سوف نفتقد بل. (ص ٨٠)

في هذا الحوار القصير يتفق (ب) ولو جزئياً مع (أ). وبعض الاتفاق خير من الاختلاف. لكن (ب) لا يراعي قاعدة الكمىة في مبدأ جريش فتعولنى. حيث يتجاهل "نجاتاً" تملأ. تفسير ذلك أن (ب) ربما ليس لديه من الخير ما يمكن أن يقول عن "نجاتاً". فيؤثر الصمت على أن يقول ما لا يسنر.

هكذا يفسر مبدأ التناوب كثيراً من الاختلافات البلاغية. تلك الاختلافات تتشكل من خلال فنوثر بين الغايات التواصلية والغايات الاجتماعية. يقترح ليتش أربع صيغ للتعامل مع هذا التوثر على لسلها يمكن تصنيف فعال اللغة/الكلام إلى (ص ص ١٠٤-١٠٥):

§ تنافسية competitive: وفيها تتعارض للغاية التواصلية مع الغاية الاجتماعية، لكن التعارض ربما لا يؤدي إلى التضحية بأى منهما، كما في الطلب والأمر.

§ تعاونية collaborative أو محايدة: ليس فيها للغاية التواصلية من أثر ملحوظ على للغاية الاجتماعية، كما في الإخبار والتقرير. طالما لم يكن أى منهما وثيق الصلة بالمتكلم أو السامع.

§ متاعمة convivial: وفيها انسجام وتناغم بين للغاية التواصلية والغاية الاجتماعية، كما في الشكر والتهنئة والتحية.

§ صدامية conflictive: وفيها صراع حاد، بل لكثير حدة من مجرد التنافس، بين الغايتين التواصلية والاجتماعية، كما في توجيه الاتهامات والسب والإهانة.

توثرات أخرى يستخدمها ليتش في صياغة مبدأ التناوب، بين الأرباح benefits والخسائر أو التكاليف costs، بين المدح praise والذم dispraise، بين الشقاق disagreement والاتفاق agreement، بين التعاطف sympathy والشمقة antipathy (ص ص ١٣٣-١٣٩).

لما القواعد التي ينتظمها مبدأ التائب من وجهة نظر ليتش فيبحثها فيما يلي. مع ما يلزم من تصرف:

§ **التيقة Tact**: لا تكلف غيرك أكثر مما تكلف نفسك. ولا تمنع غيرك قُلْ مما تمنع نفسك.

§ **الكرم Generosity**: لا تكلف نفسك قُلْ مما تكلف غيرك. ولا تمنع نفسك أكثر مما تمنع غيرك.

§ **الاستحسان Approbation**: أكثر من مدحك غيرك. وأقل من نمك غيرك.

§ **التواضع Modesty**: أكثر من نمك نفسك. وأقل من مدحك نفسك.

§ **الاتفاق Agreement**: أكثر من الاتفاق، وأقل من الشقاق مع غيرك.

§ **التعاطف Sympathy**: أكثر من التعاطف مع غيرك. وأقل من الشفقة في غيرك.

من الواضح أن لكل قاعدة من هذه القواعد وجهين: أحدهما يتعلق بالمتكلم أو الكاتب، والثاني يتعلق بالمتلقي أو الطرف الآخر؛ أحدهما يتعلق بالمسبب أو التخفيف (فيما هو ضار أو قبيح)، والثاني بالإيجاب أو المبالغة (فيما هو نافع وطيب). فإذا كنت في مقام قلوب أو العتاب، فأقل منه ما استطعت، وإذا كنت في مقام الامتنان أو التهنية، فأكثر منهما ما استطعت. من التائب أن يمدح الآخرين، لكن ليس منه أن يمدح نفسك، فإن كان لا محالة، فقلل منه بكفى، ومن التائب أن تلوم نفسك، لكن ليس منه أن تلوم الآخرين، فإن كان لا محالة، فقلل من اللوم فمهت بكفى، ويظهر الاحجام مقدما على الإقدام، وتظل السلطة الاجتماعية - حتى إن كنت مؤهلة أو مشروطة - والألفة عظيمين مؤثرين في تحديد الأسلوب المناسب للتعبير عن التعجب.

في هذه القواعد يضيف ليتش تحبيذ كل ما هو مبهج، من هنا تبدو جملة "مقالتك رديئة" أقل كلفة من "مقالتك إلى حد ما رديئة" ومن "مقالتك جميلة ولكن...". يضيف ليتش كذلك قاعدتين هما المدح في صورة الذم Banter، والذم في صورة المدح Irony أو السخرية. يقع الأول بين الأصقاء المقربين الذين زالت بينهم

الحولجز التي تستلزم التناوب، فيكون السبب والشتائم والخشونة والتعازير تعبيراً طريفاً عن الالفة. لذا الثاني، فيهدف إلى تجنب النقد المباشر أو الملاحظة الظاهرة، فنقول لنص فهي ردي "هذه رائعة أدبية!"

يظل مبدأ التناوب الذي طوره لينش نظرية مهمة ومقربة مشروعة، لكنه لم يحظ بما يستحق من اهتمام في الدراسات التداولية، وظل يعني اختيار هذه الدراسات إلى نظرية برون ولشمسون Brown and Levinson (١٩٨٧/١٩٧٨). تنطلق نظرية برون ولشمسون من مقولات عالم الاجتماع ايرفنج جوفمان Goffman حول صياغة الاطباءات وتشكيلها، وكذلك من الكتابات المؤسنة لاوستن وسيرل وجرايمس.

وتدور النظرية حول مفهوم ماء الوجه face، إن حفظاً وإن بركة. فبعض ما نقول أو نكتب فيه حفظ face-saving، وبعضه فيه بركة face-damaging، وبعضه ينذر ببركة ماء الوجه face-threatening - ماء وجه المستنم (كأ) self-face، أو المتلقي (الأخر) other-face. وكما هو الحال فيما سبق، يظل للتكيسة وجهان هما الإحجام والإقدام - هما التناوب السالب أو السلبى negative politeness، والتناوب الإيجابي positive politeness في نظرية برون ولشمسون - وهما يقابلان حاجة البشر إلى الخصوصية والتحرر من الضغوط ومن فضول الآخرين وتطلبتهم negative face من ناحية، وإلى قضاء والاستحسان والقبول positive face من الناحية الأخرى (برون ولشمسون، ١٩٨٧، ص ٦١-٦٢).

وكما هو الحال فيما سبق، تظل سلطة المشاركين في الحوار والمسافة أو الالفة بينهم أو بينهما تحدد أسلوب التناوب ومقداره واتجاهه (برون ولشمسون، ١٩٨٧، ص ٧٧-٧٨). حيث يصلح الإحجام إجمالاً مع من لهم سلطة أو نفوذ علينا، ويصلح الإقدام مع من تجمع بيننا وبينهم ألفة أو مودة.

حين يكون المتكلم في مقام التلطف بما يحتمل إهانة، أو إساءة، أو تكثيفاً، أو لوماً، أو زجراً، مما يهدد بإفراقة ماء وجه من يكلم أو وجهه هو، تبقى لأمته مجموعة من الاختيارات. الاختيار الأول: بين أن يتلطف بذلك وألا يتلطف به. إذا اختار، أو كان عليه أن يتلطف بما يحتمل شيناً مما سبق، يبقى لديه الاختيار بين التصريح **on-record**، والتلميح **off-record**، حتى إذا اختار التصريح، بقي لأمته أن يفعل ذلك دون مداراة أو تهوين أو تخفيف أو تلطيف **without redressive action**، أو أن يفعل مع شئ من التلطف والتخفيف **with redressive action**، إذا اختار التخفيف والتلطيف، فقد اختار التائب، وبقي عليه أن يختار بين نوعين من التائب تكررت الإشارة إليهما من قبل - الإحجام والإقدام (براون ولغسمون، ١٩٨٧، ص ص ٦٠، ٦٩).

ولنضرب لما سبق مثلاً. كنت تريد أن تقترض بعض المال من صديق. لأمك في البداية طريقان: أن تسأله المال أو ألا تسأله (لعله يفهم من تلقاء نفسه). إذا قرّرت أن تسأله المال، فإمامك طريقان: أن تصرّح أو تلمّح (تخيره عن ظروفك فصعبة غير الموقية وضرورات الحياة التي لا تنتهي - وربما لا يفهم، وربما يفهم فلا يبالي). إذا اخترت التصريح، بقي لأمك أن تفعل ذلك دون تلطف أو تلطيف ("قرضني مبلغ كذا وكذا" أو "عاوز....." أو "هات....."، أي "لحاج" أو "يعزني")، أو أن تفعل مع شيء من التخفيف والتلطف ("من فضلك....."، و"كو مضكش مفع....."، و"ممكّن لو سمحت..."، أو "تكرمّا"، وإذا لم تكن متعجلاً). في هذا المخطط كثير من التيسيط غير أن له وجاهته.

وفي تفصيل نوعي التلطف أو التائب يطرح براون ولغسمون عدداً من الأساليب البلاغية التي تندرج تحت الإحجام (التائب السلبي) والإقدام (التائب الإيجابي) (براون ولغسمون، ١٩٨٧، ص ص ١٠٢-١٢٩، ١٢٩-٢١١، والأمثلة هنا من اللغة العربية). تشمل أساليب الإحجام أو الكفّ والمنع ما يلي: المواراة وتجنب المباشرة، ووضع الطلب في صورة تساؤل، والتعبير عن التمني، واستخدام صيغ التوقيف

والاحترام ("حضرتك" و"سعادتك" و"طال عمرك" و"فخامتك" و"سموك"). والاعذار وطلب القبول ("أسف للإعراج ..."، و"معذرة ..."، و"رجو أن تسامحني ...")، وتجنب صيغ الخطاب المباشر "أنا" و"أنت" ("كيف يمكن الوصول إلى ..."). وتفضيل الصيغ المصدرية على الفعلية ("ممنوع التدخين" بدلا من "نحن نمنع من أن تدخن") والتصميم ("حسب اللوائح والتعليمات، يمنع ..."). وحفظ الجميل والاعتراف به ("سكون ممتازا غلب الامتحان لكم ..."). واستخدام صيغة الجمع ("على سادة ركوب المسافرين ..."، و"تصنر" بدلا من "اعتذر"). وتخليف ("فقط لرب أن أسأل إذا كان من الممكن أن ..."). واستخدام صيغة الماضي ("لرب أن ..."، و"كنت لود أن ...").

وتشمل أساليب الإقدام أو المنح ما يلي:

مراعاة حاجات الآخرين ("لا بُدَّ أنك جوعان"). والاستحسان والاهتمام والمباينة فيهما كلما كان ذلك ممكنا ("ما لروع قصيدتك!"). و"أعجبتني مدخلتك فيوم جدا". و"حلوة خلص". و"وهد حلوة"، و"ممتاز!"). والتعبير عن الألفة من خلال صيغ الدرجة ("هت يا عم البتاعه دي"، و"رمسه عودة"، و"يش لوتك؟"، و"زي الحال؟"). وتجنب الاختلاف والشفق ("أنا صحيح"، و"أنا أتلق مع ما تقول") وطلب فوقك والاتفاق. بل افتراض وجودهما لحياتا ("سوف نلتقي غدا، ليس كذلك؟"). و"هشوف بكرة"، و"كنت جاي معنا، مش كده؟") وافتراض وجود لرضية أو خلفية مشتركة بين المتكلم والمستمع ("كما تعلم ..."، و"تعلمون أن ..."). والفكاهة، والمباعدة الفكرية والوعود بما يضر ("توروك غدا إن شاء الله") والتعبير عن الترابط والمشاركة ("كيف حالنا فيوم؟"، و"أنا النهارده عال العال"، و"مشينا"). وتكثيف المبررات والاعذار كلما لزم الأمر ("لقد تأخرت ..."، و"لا بُدَّ أن أذهب الآن ..."). والتعاطف ("تبدو مرهقا فيوم"). والعطاء في مقابل الأخذ ("أرد لك هذا الجميل يوما"، و"هذا دين في غفني").

هنا ينتهي الكلام
 عن مبدأ القالب
 في الدراسات
 التدويلية
 الغربية، لكن
 هذه الدراسات
 حظيت بما لا
 نستطيع له هنا
 حصرا من
 مقاربات
 ومرجعات ثقت
 على ما تعني
 منه هذه
 الدراسات
 والتصورات من
 توريد، ومن
 تحول في
 الثقافة الغربية،
 ومن تبسيط
 مخزل في تصنيف
 القالب إلى أقسام
 أو إبحام، دون
 معتجة الدرجات
 لملاحة فيما

الكلمة الطيبة

M:SD± 6478 dy+x 788 pJx WAS? Sz u y ix 19 N2
! SU . e3publ 8m@ 922 @ A2 " 9j 98 98^o m
dy+x 9888 pJx 9888 c r2 xG Og988 98A98F8
(سورة) AE 988 B 98 98 F8 - q B M98 9888
ابراهيم).

في القرآن الكريم، وهو معنى البلاغة العربية الأول، اشارت
اخرى إلى فضيلة الكلام الطيب. ومن تلك خطب الله عز وجل
رسوله صلى الله عليه وسلم

[illegible]

وفي صحيح البخاري مما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم
 كتاب اللأب من بين ما نجد فيه: (١) "حدثنا قتيبة بن سعيد: حدثنا
 أبو الأحوص، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة
 قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله
 واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر،
 فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرا أو
 ليصمتا"، (٢) "حدثنا فم: حدثنا شعبة: حدثنا سعد بن أبي هريرة
 بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه، عن جده قال: قال النبي صلى
 الله عليه وسلم: على كل مسلم صدقة، فقلوا: فمن لم يجد؟ قال:
 فيعمل بديه فينفع نفسه ويتصدق. فقلوا: فإن لم يستطع أو لم
 يعل؟ قال: فيصن ذا الحاجة الملهوف. فقلوا: فإن لم يعل؟ قال:
 فليامر بالخير، أو قال: بالمعروف. قال: فإن لم يعل؟ قال: فليمسك
 عن الشر فإنه له صدقة"، (٣) "وقال أبو هريرة، عن النبي صلى
 الله عليه وسلم: الكلمة الطيبة صدقة"، (٤) "حدثنا أبو الوليد: حدثنا
 شعبة قال: أخبرني عمرو، عن خيثمة، عن عدي بن حاتم قال:
 ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قنار، فتعوذ منها وشاح بوجهه،
 ثم ذكر القنار فتعوذ منها وشاح بوجهه، قل شعبة: لما مرتين فلا
 شك، ثم قال: اتفقا قنار ولو بقي تمر، فإن لم تجد فيكلمة
 طيبة". وفيه الصحيح كذلك كثير عن ير الولدين، وصلة لرحم،
 والرحمة، وحسن الخلق، والرفق، والتواضع، والامتنع، والوفاء.

بينهما. ودون اهتمام مناسب بنقيض التائب، أي الوقاحة أو البذاءة ("قصة الحب").
حتى الدراسات التدلّوية للعربية - التي تبقى حبيسة المكتبات الجامعية - تتأوله من منظور غربي. وحين تُترجم نظرية التائب خصوصا والتدلّوية عموما إلى العربية، ينتهي الأمر إلى نصوص غريبة تستعصي على الفهم، وتضطر قراءها إلى الرجوع إلى الأصول الغربية. هذا إلى ما نلّفه من تهافت ادعاءات السبق الحضاري والاختيار غير الواعي بين بلاغة عربية قديمة دون تجديد أو مراجعة، وبلاغة غريبة بفضّنها وقضّضها، دون تفنيد، ودون اهتمام بالمساق الثقافي الذي تطوّرت فيه.

كياسة أون لاين

لم ينضب بعد معين البحث في التلأب. مازال ينتقل من جنس خطابي إلى آخر، وتتوالى الدراسات في مختلف اللغات والثقافات، ويستجيب لمنغبرات العصر فيتجلى في داب وأخلاقيات استخدام الانترنت أو *netiquette* فتى نجد شرحا مفصلا لها في كتاب هيرجنوا شيا Shea (٢٠٠١). من تلك الأداب:

§ تكيد البهء الإنسانى، لأن وراء الأجهزة والشاشات والرسائل البريدية والدرشة والمنديات بشرا يشعرون ويعقلون.

§ التزام نفس الأداب والقواعد الأخلاقية والسلوكية فتى ينبغى الالتزام بها فى الواقع البشرى الذى لفناه عند الانتقال إلى الواقع الافتراضى الذى لم يد هناك بد من معاشته، على معنى أن القواعد التى ورت فيما سبق صالحة للتطبيق فى الواقع الجديد، مع ملاحظة ما يشم به من خصائص وما يستخدم من مسقط

§ الوعى بالمكان والمقام فى هذا الفضاء الواسع حتى لا تقع فريسة لرسائل غير المرغوب فيها، والإعلات المضللة، والقرصنة، والفيروسات، وغسيل الأموال، وشتى صنوف الاحتيال والتحايل، وحتى لا تؤذى الآخرين، أو تلحق بهم الضرر.

§ احترام خصوصيات الآخرين ولوقاتهم وشغالاتهم، لأن لهم أولوياتهم فتى ربما لا تتفق مع أولوياتنا، ولتزاماتهم التى ربما لا تشبه التزاماتنا.

§ حسن المظهر وحفظ ماء الوجه على الانترنت، فلا تفعل ما يشين، أو يثير الكراهية أو التفرز أو اللغور.

§ تداول المعرفة وتقاسمها، وتبادل الخبرات والمهارات عبر ما يتيح الواقع الافتراضى من مسقط ووسائل.

§ مناهضة للتصب والحروب الكلامية، والتناز، والإساءات المتبادلة بين قاصر المذاهب المختلفة، والفرق الرياضية المتنافسة، والعرقية المتصارعة، والبلدان المتجورة.

§ تجنب إساءة استخدام ما يتيح الواقع الافتراضي لبعض "مخنة" من قوة أو سلطة وهيمنة مصدرها الخبرة، أو المعرفة، أو الاحاطة بما لا يحيط به الآخرون. ومن ذلك أن يتجنب مديرو المواقع والمشرّفون على المنتديات نقطة، والفظاظنة، والصخرية، والتطاول في إصدار ونشر تعليماتهم.

§ التسلمح والتجاوز عن هفوات ولخطاء الآخرين التي ربما تنجم عن حداثة عهدهم بالواقع الافتراضي والياتيه، وانواتيه، وقواعده. وربما يقتحم الدرشة أو المراسلات أو المنتديات أو المدونات قراصنة، وينجحون في شعل فتيل الكراهية والحروب الكلامية بين متحورين.

بلاغة الصمت

وردت إشارة إلى الصمت، وهو جدير بشيء من الاستطراف، فمنه، ومن مرافقه الصكوت، ما يكون أبلغ أو أكثر كيلة ولياقة من الكلام، فيكون ذهاباً حين يكون الكلام فضة، ومنه ما يكون كلاماً يخر كلام، كما نجد في الثقافة العربية الإسلامية - "صكوت علامة لرضا". ليس كل الصمت بالقطع رضا أو قبول، فمنه ما يكون خوفاً، أو هروباً من قرينة والمحكمه - كما في "الصكوت عنه" من أمور الدين والسياسة والجنس - أو كمداً، أو خجلاً، أو حيرة، أو دهشة، وتبهاراً، أو تأنلاً، أو استراحة من الكلام، أو استدعائه، ومنه ما يكون اضطراباً جسدياً، كما يحدث أثناء النوم والتفكير، ومنه ما يكون رعاية لبعض الفسوف أو تطبيقات الأدب، كما نعلم في المكتبات العتية، وشاء خطبة دينية. ومنه ما يكون صمت اقرباء الذين لا يجمعهم جامع إلا مكان كالمطرفة أو الحظنة. ومنه ما يكون استماعاً وطلباً للمعرفة أو المتعة، أو كليهما، يتباين في تركيزه، ووقاره يتباين ما يقل من تلوته، أو محاضرة، أو خطاب سياسي أو أغنية. ومن الصمت ما يكون بجلالاً للموت، وما يصلح من حزن، وتعزية، وجثرة، وما يتلوّه من حذر. ومنه ما يكون صمماً عن الكلام وقاءً للنكر، كما فعلت السيدة مريم وروى عنها القرآن الكريم. ومنه ما يكون تطلقاً عن قول ما لا يليق - ولا بد أن ما "يليق"، ومن ذلك الكلام في الأمور الاسرية، والمسؤول عن العمر، والراتب، والحلة الزوجية، والديانة، أو المذهب، يختلف من سيق إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى. ومن الصمت ما يكون إشارة في انتهاء حوار أو كلام، ومن الصمت والصكوت ما يكون قهراً، أو قمعاً يمارسه ذوو القوة والسلطان والتفوق على من سواهم. ومنه ما يكون جهلاً بما يقال، أو إدراء له، أو لمن يقولونه. ومنه ما يكون من قبول ضحك الثقة بالنفس أو فقدانها، وما يصلح ذلك من خوف لوقوع في الخطأ، والتعرض للسخرية. ومن الصمت ما يكون لتجلبا، أو اعتراضاً، أو استماعاً موقفاً عن الكلام في محكمة، أو أمام النيابة.

(انظر على سبيل المثال يقرت Ephratt، ٢٠٠٨).

§ الإشارة إلى (أو في) الخطاب discourse deixis :

"في الفقرة السابقة"، "فيما يلي"، "في هذه الرواية"، "فيما سبق". هذه اشارات نصية تنظيمية تحول إلى أجزاء في النص أو الخطاب وتسمى إلى تنظيمه وتحقيق السبك والحبك فيه. ومن تلك الإشارات الشارحة - كما نجد في هذا الاقتباس - "فننظر" - من مقدمة قطعة من أوروبا لرضوى عاشور - وما تتخذ من خلاله بؤرة سرد وزويته: "في هذه الرواية لنا الناظر. ليس هذا الاسم هو ما اخترته لي والذي، ولا هو كنيي التي يناديني الناس بها، أنا الناظر لأن مهمتي فنظر. نقل عبر حكايي ما نظرت إليه من نظر العين والقلب، أي ما رأيته بالبصر والبصيرة. حين رجعت إلى المعجم لأتأمل مادة "نظر" وأطمئن أن الاسم يفي تعلم فوفاء بفترض. استوفقتني عبارة "ناظر العين"، وهي للنقطة السوداء الصافية التي في وسط سود العين، وبها يرى الناظر ما يرى، وهي البصر نفسه، وهي أيضا عرق في الأنف (أو عرقان على جتبي الأنف) فيه (أو فيهما) ماء البصر، أترجمهما بلفظا المعصرة إلى قناة لسمع. فكت هذا اسم يناسبني، ثم عدلت عن استخدامه لغريبته. وأيضا لمنافته بدقة، فما رويه ليس ببصر نفسه بل ما رأيته فأعجيني أو ساعني. أفكر فيه وقدره قياسا على موقعه مني وموقعي منه. ثم أعجبتني "نظيرة القوم" وهو طليعتهم. ينظر إليه قومه. يستلون ما استل، وهو طريقته. ولكني وجدت هذا الاسم لثقي تماما كسابقه غير ملوف ولفظك الدقة، فلنا، على عكس نظيرة القوم. رجل وحيد مصكف في داره، لست طريقة أهلي، ربما كان لي أهل أتعرف عليهم ذات يوم. ولكن هذا امر مستبعد لأن العمر لن يمتد طويلا. أنا الناظر، منظرتي تلة عمري. فكك عليها رفها وحارسا، فنظر واعبر وأفهم دلائل المحبة، لأن النظر في لسان العرب دليل محبة. وترك النظر دليل تصرف لو بغض وكراهية. ربما كان هذا التوضيح زقدا عن الحاجة، يستيق الروية باعلان ما قد تشير إليه وتضمته، ولكني أردت رفع اللبس. لأن كلمة "فننظر" في العربية قدرجة في مصر تحول إلى مدير المدرسة، وفي الماضي غير البعيد كان الوزير المنتقد يدعى الناظر، يدبر شئون نظارته المحددة ويحكم سير الامور فيها. لم

أعمل مديراً للمدرسة في حياتي، ولا توفرت لي سلطة الإدارة والمديرين. ناظر المدرسة أو الوزارة ينالني للمقام والمقال وتجربتي. كيف لي وانا أقصد دفقة والامانة ان ترك لاسمي لدال على مهمتي أن يسحب خيال القارئ إلى طريق مفارقة تغير الماضي وتعكسه؟" (رضوى عاشور: قطعة من أوروبا، ٢٠٠٣).

§ الإشارة الوجدانية empathetic delxis :

"هذا" للفریب و"ذلك" للبعد، والبعد هنا قد يكون مكتباً. لو زمعياً، لو شعورياً. وقد يكون تعبيراً عن التوقیر والإجلال، من هنا تبدو غرابة تعبير من قبیل "هذا الماضي البعيد" إلا في سياقات خاصة، وبلاغة للتعبير القرآني عن القرن ذاته في سورة البقرة: "ذلك الكتاب لا ريب فيه". ومن جميل ما ورد في البلاغة العربية عن ذلك أن "المشتر إلى ثلاث مراتب: قريبة وبعيدة ومتوسطة. فيشتر إلى ذي القربى بما ليس فيه كف ولا لام: كالكرم هذا الرجل أو هذه المرأة وإلى ذي الوسطى بما فيه الكف وحدها: كالكرم ذاك الحصن، أو تلك الناقة، وإلى ذي البعدى. أي البعد، بما فيه الكف واللام معاً، كخذ ذلك القلم، أو تلك الدواة" (الغلاييني، ص ٢٩).

§ ظروف الزمان time delxis :

"الآن"، و"عندئذ"، و"صباح"، و"مساء"، وهكذا. لكل فعل أو حدث قتيته. فحين نقول "أنا الآن قرا"، تحول "الآن" إلى زمن نعرفه الآن في هذه الجملة ويرتبط بها وترتبط به، وحين نقرا "الآن حصحص الحق" على لسان امرأة العزيز في سورة (يوسف)، تحولنا "الآن" إلى زمنها وزمن "يوسف" عليه السلام، لا زمعك أنت بينما نقرا، ولا زمعني أنا بينما أكتب.

§ ظروف المكان place delxis :

"هنا"، و"هناك"، و"تم". ماذا نعني حين نقول "هنا"؟ لفظها "هنا" حيث نقرا أنت، أو "هنا" حيث أكتب أنا، أو "هنا" لآخرى لمتكلم آخر. لا يذ أن "من هنا وهناك" تضي من مكان/فضاء المتكلم في النص ومن فضاءات أخرى بعيدة.

ومكوناته. وسوف تعود الإشارة لظهور بهذا المعنى في معرض الكلام عن ترميز النصوص وسبكها. أما الإشارة بمعنى الحركة والإيماء وما إليها فمجالها دراسة الاتصال غير اللفظي nonverbal التي تستلزم جهداً مستقلاً، لأنها تعين اللغة التقليدية على أداء ما يرد هنا من غايات وظائف، أو تعوقها عن ذلك كله.

من ذلك ما ورد في القرآن الكريم في سورة مريم: *وإذ نادى نوحاً نوحاً* (الآية: ٢٩). لقد نذرت مريم للرحمن صوماً، وعزمت على ألا تتكلم ذلك اليوم لسمياً. ولما كتبت تريد أن تبرأ بعهدا، وفي ذات الوقت تنحض الاتهام، وكان لابد لتحقيق ذلك من التواصل، لم تجد مفرّاً من اللجوء إلى الإشارة. ولقد تحقق التواصل من خلال الإشارة. ودليل ذلك أن الرسالة بلغت هدفها، فردّ عليها قومها المرتابون بقولهم: "كيف نكلم من كان في المهد صبيّاً". في هذا السياق، حلت الإشارة غير اللفظية محلّ اللغة واتجزت وظيفتها. هذه تدلّوية مؤنّية، لا سبيل إلى الإحاطة بها هنا. ولا الوفاء بحقها، إلا على سبيل "الإشارة" العابرة.

اللفة، إذن، تشير

من خلال منفشة نظرية للفعال اللفة، ومن بعدها الإشارة. ومن قبلهما السبيل وعناصره. نستطيع أن نجعل القول فيما تفعل اللفة في أنها "تشير"، أو أنها "مؤشر" - وكلاهما ترجمة صالحة لكلمة Index، فعلاً واسماً - يدل ويوحى، أما الام تشير اللفة. وعلام تدل، فهو على سبيل التلخيص، والكلام لبول تشيلتون وكريستينا شيلفر (٢٠٠٢، ص ٣١ - ٣٢)، مع ما يلزم من توضيح وتمثيل:

• درجات اليقين والشك :

موقف المتكلم مما يقول، والكاتب مما يكتب، من حيث اليقين أو شك. ومن تلك ما نجد في "نا أعقد"، و"زعم"، و"أظن"، و"مما لا شك فيه"، و"الحقيقة"، وفي "الواقع". وقد نلاحظ أن اللفة الإعلامية في غير دولة من الدول العربية تتجرد بالتدريج من محتواها، فنسمع على سبيل التمثيل لا الحصر: "يمكن قنصله نحب نرحب بـ"، ويذهلنا ما يحدث في برامج "النوك شو" - أو برامج الحوارية - من تعبير من قبل "في الواقع" و"في الحقيقة"، وهذا الغياب اللافت لتعبير شك والاحتمال في ثقافتنا العربية.

• العاطفة والوجدان، أو الحالة الشعورية :

من خوف أو حب أو كراهية، وما تنضم به لغة المياسة من تعبير عن الوطنية patriotism، أو حب الوطن والانتماء، وكراهية كرفياء والأجانب xenophobia، إذا لزم الأمر.

• **الغاية أو المقصد، أو الفعل الذي يراد إتجاره من خلال الكلام أو الكتابة :**
 وقد تقدم الكلام عن تلك الأفعال، على أننا لا بد أن نبقى على الحذر فلازم إزاء ما نجد في لغة السليمة والإعلام من خبر يراد به الإنشاء، أو تقرير لا يراد به مجرد التقرير، بل الاهتمام أو اللوم، أو وصف في إعلان لا يراد به مجرد الوصف، بل الدعوة إلى الشراء. ومن كلام الجاحظ ما ورد في استطراد سابق بضوء "وهذا كتب:" "و هذا كتاب موعظة... والكثرة من السامة..." وقد تقدم أن من غلبت هذه المقنعة ومقاصدها: التبرير - تبرير المزح والفكاهة في مقام جد - والتتويه في ما يسمى الكتاب في إتجاره وتوصيله - "موعظة وتعريف وتغلب وتبهي".

• **جنس الخطاب، سواء كان كلاماً لم كتابة :**

في كل نص أو خطاب بعض ما يشير إلى نوعه، سواء كتبت الإشارة ظاهرة شارحة - من قبيل "سوف لحكي لكم حكاية"، أو "فيما يلي بيان وزرة لدخلية"، أو "والآن مع النشرة الجوية" - أو تركيبية شكلية - فلننص الذي يتشكل من بيئات كل منها من شطرين أغلب الظن أنه قصيدة، والموسيقى التي تصاحبها كلمات منضمة أغلب الظن أنها أغنية، وهكذا.

• **هويات المشاركين في الخطاب، وانتماءاتهم الاجتماعية وقسمة والعرقية :**
 وقد تقدم الكلام عن ذلك، لا تكتفي هذه المقنعة بالكلام عن جنس الكتاب - وهو التاريخ أو الكتابة التاريخية، عن "أنباء ما يدور مصر" - أسلوبه - "من غير لطف ولا قشر ولا إحفاف" - والتعبير عن التوتر بين مدح الذات والكتاب من ناحية، والتوسل إلى الله تعالى أن يحقق الكتاب القبول وإلى القارئ أن يقض قطرف عما يجد فيه من قصور من الناحية الأخرى، بين الوعي بما بذل المؤلف من جهد، وتبرير ما يمكن أن يقع في الكتاب من قصور، بل تتجاوز ذلك إلى الإشارة إلى انتماء الكاتب وخلفيته الدينية الإسلامية - "عجائب صنع ربنا سبحانه" و"فكك من عسيم منن الله تعالى وجزيل فضله وعظيم نعمه علي وجليل طوله" وإذا لم يصمه ويحفظه علام الغيوب".

• أنوار المشاركين في الخطاب، والعلاقات التي تربط بعضهم ببعض، وتبادل الأنوار وتغيرها :

فالمدرس في المدرسة زوج ولب في البيت، وصديق في جلسة الاستلقاء. وهكذا. ولكل دور لفته التي تميزه عن غيره من الأنوار. ولكل علاقة لفتها - كما يرد في غير هذا الموضع من التبسيط - ولكل ارتباط مقصود بين الدور والفتة التي ترتبط به في نص أو خطاب غايته البلاغية التواصلية.

التداولية العامة

• طَوَّرَ يورجين هابرماس Habermas تداوليةً بـتسقية عضة Universal Pragmatics تتسم مع جملة الاتجاهات الوظيفية التي ورد ذكرها في هذا التبسيط في تركيزها على اللغة المتدولة، لا للقواعد فنحوية أو قصرفية. مع تركيزها الخاص على المصدقية والقول بالصدق أو زعمه، وتسعى في اكتشاف ما يحقق تفاهم من خلال التواصل بين البشر، لأن التفاهم هو السبيل إلى تجنب الصراع والشقاق وإلى حل النزاعات، أما سوء التفاهم أو عدم التفاهم، فقد ينجم عنهما القتل والحروب والفترات والعداوات. وهي تداولية تسعى إلى تجاوز الفصل المفنصل بين الجسد والعقل، بين النظرية والتطبيق، بين التحليل والنقد أو تنفيذ. حتى يتحقق التفاهم، لا بُدَّ من لغة مشتركة يفهمها طرفا الحوار أو التفاعل، ومجموعة من القواعد التي تنظم التفاعل أو الحوار، ومن التوقعات التي يحترمها الطرفان. غايات التفاهم الذي يتحقق من خلال التواصل اللغوي هي الانسجام وتبادل المعرفة. وترسيخ ثقة بين الطرفين بما يحقق التنوير وروح الجماعة والاتفاق، ويكرس الإحساس المتبادل بحسن النية (هابرماس، ١٩٧٩، ص ٣). فيما يلي تلخيص لركن تلك التداولية ومكوناتها:

أسس الصلح	مجاله	نوع التواصل	وظيفة اللغة
الحقيقة	العالم الخارجي	معرفي موضوعي	تمثيل الواقع وتبادل المعرفة
الامانة	التكلم أو منتج الخطاب - الثات المشاركة في التواصل	تعبيري ذاتي	الابوح بما يشعر به المتكلم وبما يمتد
لوازمة	المجتمع/ الجماعة	تفاعلي تواصلي	تأسيس علاقات اجتماعية مقبولة بما يحقق انسجام القيم والوقوف

أركان التداولية العامة ومكوناتها

نقلًا عن هابرماس (١٩٧٩، ص ٢٨-٢٩، ٦٨).

ركن الأول من أركان تلك للتداولية - الحقيقة - هو الوظيفة التصويرية الوصفية ideational في نسق هاليداي، وهو التقرير في نسق أوستن وسيرل، وهو الخير في البلاغة العربية. أما الركن الثاني - الأمانة أو الإخلاص - فجزء من الوظيفة التفاعلية التواصلية Interpersonal في نسق هاليداي، وهو ينظر ضرورات الصق والنجاعة في نظرية للعال للغة عند أوستن وسيرل، كما يرد في غير هذا الموضوع. ينتظم ركن الثالث في التداولية العامة - وهو المواقعة - خصص الأجناس الخطابية، والضرورات والقواعد الاجتماعية التي تحيط بالخطاب، وهو شرط من شروط النصية، أو النصوية، في لغويات النص.

كيف يتحقق للخطاب صدقه ونجاعته؟ من خلال الإحالة إلى حقائق قبلية للملاحظة أو الاختيار في العلم الخارجي، ومن خلال ما ينشأ بين منتج الخطاب ومستقبله من ثقة وقفة وتفاهم، ومن خلال الالتزام بالأعراف التواصلية الاجتماعية التي نجدها تحت مسميات التقاليد الأدبية، أو أدب الحوار، أو الأجناس الخطابية، وغير ذلك، مما يحقق التفاهم بين طرفي الحوار أو الخطاب مما يرد في هذا التبسيط في معرض حديث عن شروط النصية، والمبدأ التعاوني، واللباقة والكياسة.

وكيف يحقق المتكلم أو الكاتب غاياته البلاغية التواصلية، ويدفع عن موقفه أو موقفه وتوجهاته، وينقل ما يريد من معنى؟

لا بد أن يكون ما يقال أو يكتب قابلاً للفهم، وأن يشتمل على مقاصد المتكلم أو الكاتب، وأن يتأسس نوع من الفهم المشترك بين المتكلم أو الكاتب والمتلقي، أو بين أطراف الخطاب (هايرماس، ١٩٧٩، ص ٤).

وحتى تتحقق للتواصل غاياته، هناك مجموعة من الافتراضات التي يجب أن يقبلها المشاركون في الخطاب، أو يسعوا إلى تحقيقها، ومنها أنهما أو فهم يستخدمون نفس العلامات اللغوية بنفس الطريقة وب نفس المعنى. وأن للجميع حق المشاركة والتفاعل. وأن الفضل لا يكون إلا للحجة القوية. وأن الجميع حريصون على تحقيق التفاهم. وأن كل ما يقال يمكن أن يخضع للتنفيذ والمساعدة.

التداولية المقارنة

توقفنا فيما سبق عند جملة من مبادئ تداولية منها مبدأ الكيفية في ثلاث فطروحات متميزة، على ما فيها من تشابه، والمبدأ التعاوني، وما يتصل بهما من تضمين، وفتح، وتجاوز، وما تستند إليه التداولية في جملتها من تصنيف قفعل للغة أو الكلام وشروط نجاحها وفق تصورات أوستن ومن بعده سيرل.

لم نتوقف طويلاً فيما سبق من هذا التبسيط عند حقيقة أساسية مهمة، ألا وهي أن تلك المبادئ والقواعد التداولية تختلف في تجلياتها من لغة إلى لغة، ومن ثقافة إلى ثقافة، ومن موقف إلى موقف، بما في ذلك من يشارك في الموقف من أشخاص أو شخصيات. هذا التباين هو موضوع التداولية المقارنة أو التباينية *contrastive pragmatics* أو *cross-cultural pragmatics* أو *continental pragmatics* - وهي تهتم بالكلام والحوار - وما يتصل بها من بلاغة مقارنة *contrastive rhetoric* - وهي تشتمل بالكتابة، والتداولية بين الدوليتين *interlanguage pragmatics*، وتتناول أساليب تعبير قتي يستخدمها من يتعلم لغة أجنبية حيث تختلط فيها تداوليته التي درج عليها وتداولية الجديدة التي ترتبط باللغة الجديدة (على سبيل المثال كاسبر وبلوم كولكا *Kasper and Blum-Kulka*، ١٩٩٣).

لن يقع الاختلاف والتباين في تداول اللغة بين الثقافات لمختلفة؟
فيما يلي بيان بعض مواضع التباين، ناسبها على شرح بوهل (Pohl ٢٠٠٤)،
بكثير من التصرف والنضيج:

- الميول الذهنية وعادات التفكير *mental sets*:
كيف يفصر الضيف سلوك مضيفه حين يلج في دعوته إلى الطعام أو إلى القهوة؟
كيف نفقر؟ وكيف نفسر ما يقع حولنا من أحداث؟ كيف يتشكل سلوكنا اللغوي من

خلال طرق تفكيرنا؟ كيف نفسر تبسم أحدهم بينما يستمع إلى ما نقول؟ لا بد أن طرق تفكيرنا ما يحدث لنا وحولنا تؤثر في ردود أفعالنا اللغوية وغير اللغوية.

• الأسبق والتصورات، أو المخططات، الذهنية المسبقة أو *schemata* عن الأشياء والموجودات والأمكن وما تتشكل. ومن ذلك تصور المرء عن هيئة أو مظهر المدرسة، ومضى الطلبة أو الإجازة. لا بد أن يكون لهذه التصورات عن المقام، ومن عناصره المكان، تأثيرها فيما يحدث فيه من سلوك لغوي.

• التصورات، أو السيناريوهات، الذهنية المسبقة *scripts* عن الأحداث ومكوناتها وتتابعها. ومن ذلك التسوق، أو مراجعة الطبيب، أو الحصول لحجز موعد مع مدير شركة أو إدارة، وما ي صاحب كل ذلك من أفعال لغوية.

• الأحداث التواصلية *speech events* والأغراض اللغوية. وكيف تتحقق من خلال تتبع أفعال اللغة.

من ذلك على سبيل المثال الاعتذار *apology* وما يشتمل عليه من تلمذ وإقرار بالخطأ ثم تبريره، إذا كان هناك ما يبرره، ثم التعهد ألا يقع خطأ مرة أخرى. من هنا تتجاوز الأحداث التواصلية أو الأغراض اللغوية، من اعتذار، وطلب، وشكوى، وإطراء، وغير ذلك، مجرد الأفعال الكلامية المنفردة إلى مجموعة من الأفعال الكلامية التي تنظم وفق أعراف تداولية تحكمها الثقافات التي تحيط بها.

• الأعراف الاجتماعية الثقافية *socio-cultural norms* التي تحدد ما يليق وما لا يليق في الكلام والحوار، وتبادل الأنوار، والسكوت، ورفع الصوت، وما إلى ذلك.

• الكياسة واللباقة، وقد تعلم الكلام عن ذلك، وما يحذرها من الالفة *solidarity* أو التباعد *distance* بين المشاركين في الحوار، وما لكل منهم من نفوذ أو سلطة، أو محبة.

كل ما سبق من عناصر يتباين من لغة إلى لغة، ومن ثقافة إلى ثقافة، ومن موقف إلى موقف، ومن هنا ينشأ التباين في السلوك التداولي. إذا جاز التعبير. فإذا كان لشكر أو التعبير عن الامتنان غرضاً لغوياً إسقاطياً علماً، فإن طريقة التي تعبر بها

كل لغة وكل ثقافة عن ذلك تختلف عن الطريقة التي تعبر بها لغة أخرى في ثقافة أخرى عن نفس الفرض. وقد ظلت التداولية التقليدية رهن الاحتمال للانساق اللغوية والثقافية الأنجلوأمريكية، حتى تطورت التداولية المعقونة، بين سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، وهي تنطلق من التسليم بالفروق الجوهرية بين الثقافات المختلفة في إنتاج فعل الكلام أو اللغة وتلقيها، وفي تطبيق أو انتهاك المعدا فتعاوني. وفي سلوك فكيلة والتغلب. وغير ذلك من جوانب التداولية. لا سهل في حصر الدراسات قسي تتناول الفروق الثقافية في تحقيق الأغراض التواصلية من شكر. وشكوى. وطلب. وإطراء. واعتذار. وتعزية، وتهنئة، ولوم، وغير ذلك، غير أن جل تلك الدراسات تقع في شرك الاحتكام إلى الانساق اللغوية الأنجلوأمريكية. وتطبيق النظريات قسي تنطلق من تلك الانساق، دون مراجعة أو تفنيد، واختزال ما يلاحظ من تعبير لغوية وأساليب تداولية، قد تدعو إلى إعادة النظر، حتى تندرج تحت النمذج قفرية.

حين يحدث التلاقي بين لغتين، ومن ثم ثقافتين، تتبدى تلك الفروق تداولية. وقد ينجم عنها سوء فهم أو ارتباك حين يحاول طرفاً من الطرفين أن يفرض أفسقه اللغوية التداولية على الطرف الثاني، وحين يجهل طرفاً عادات غيره تداولية. وهذا بعض ما يشتمل عليه مصطلح pragmatic failure (توماس Thomas ١٩٨٥)، وقد يقع الاختزال، فيتنبأ الجميع تداولية الأقوياء. فتصبح المعيار والنموذج الذي يجب أن يُحتذى. ولا تخلو تلك المواجهات بين الثقافات من طرفة. على سبيل التمثيل لا الحصر، في مقام الإطراء ربما يبدى غربي أعجابه بمساعة يد يضعها محدثه العربي، فلا يكون من الأخير إلا أن يقنمها إليه. ويدعو أن يلقبها. لو لم يكن الغربي على دراية ببعض العادات اللغوية التداولية العربية، لحسب أن الدعوة صافقة جادة - ولعلها كذلك في بعض المواقف. وربما يخطئ غربي "لرسميت" مخاطبة زميلة غربية إياه باسمه الأول، فيظننها حياء أو قفة تنمو. وما هي كذلك.

لا تقتصر تلك التباينات على الأفعال اللغوية المفردة أو التعبيرات والجمل، بل تتجاوزها إلى العادات التداولية، من قبيل تجنب الرفض والإجابة بـ "لا اعلم". وغير ذلك. وإلى أساليب التعبير الكبرى، وما قد تشتمل عليه من مهثرة أو مداراة. ومن

تكرر. واستطرد، أو اقتضب، وخروج عن الموضوع، أو إقترام به، وما إلى ذلك من أساليب تدلّلية.

تقع تلك التباينات، ومن ثمّ المطابقات، كذلك على مستوى التعبير غير اللفظية، من لحن، وإيماء، وحركات، وإشارات، وتبسم وضحك، واقترب أو تباعد، وهمس، ونظرات، وما إليها. من ذلك أن الصمت لا يعنى الرضا في كل حل، كما يرد في غير هذا الموضع، ولا الإيماء بالرأس، بما يفيد الموافقة في ثقافتنا العربية، له نفس المعنى في غيرها من الثقافات، وليس وضع الساق على الساق في حضرة من بكرنا فعلاً غير لائق في كل الثقافات، ولا خلع الحذاء عند دخول منزل مضيق ضرورة أخلاقية في كل المناسبات أو الثقافات.

وليس بمستغرب، والحال هكذا في الكلام والإشارة، أن يقع التباين في أساليب الكتابة وطرقها وأقوالها من لغة إلى لغة، ومن ثقافة إلى أخرى، وهذا هو مدار انشغال البلاغة المقارنة أو التقلبية كما سلف. تبلورت تلك البلاغة في نمطتها الغربية تسيماً على دراسة كابلان Kaplan (١٩٦٦) المهمة، والتي تتناول أساليب الكتابة في ثقافات مختلفة، منها ما يسير في خط مستقيم، ومنها ما ينلّز ويدور حتى يصل إلى غايته البلاغية، ومنها ما بين ذلك، تبقى تلك البلاغة، بعد مرور ما يقارب نصف قرن منذ نشر كابلان دراسته التي تتخذ من أسلوب الكتابة الأمريكي معياراً للحكم على غيره، موضوعاً ثرياً، على أن تتجاوز التصنيفات جاهزة في تناولها لأساليب الكتابة وبلاغتها في المكاتبات والرسائل العلمية، وما تشتمل عليه من معالجة، ومقدمات الكتب، وغير ذلك من أجناس تحريرية.

وليس بمستغرب كذلك أن يقع في الكتابة ما يقع في الكلام من انتقال transfer الأساليب البلاغية من اللغة الأم إلى اللغة الثانية، أو الأجنبية، وتشكل ما يسمى تدلّلية بين تدلّليتين، لا هي تدلّلية اللغة الأم، ولا هي تدلّلية لغة جديدة فتسى يقبل الطلاب والدارسون على تعلمها، من ذلك ما يمكن أن يصدر عن متعلم عربي في رده الإعجاب بهاتفه المتحرك باللغة الإنجليزية قائلًا "Please take it" - مفردات

إنجليزية ونحو إنجليزي، لكن الدعوة عربية. إذا ظل المتعلم على هذا الارتباك، ولم يتغنّ الفتنل بين اللقنن والنننولننن، كن كالفرب الن الذي لو أن برن كالفنل فف كنبله ونمنه. لفن من صالف أأن أن ففم إأن اللقنن لصفك الأفرى. ولا أن نصبن للفت ففمعا نمسا شافنه من لغة كالإنجليزية، لكن من صالف للففم لآفرم علف الأفرن اللقننه والنننولنه، واللوعف بفلفروق النلقننه بفن الفشر فم بفضمف الفهم. وحنن الففن، وفننن الضرر.

ففف أن نرف أن على بفم ما ففلف بدراسف الفرفمه وهف ففنلوال الأسلوب الفلافنه والنننولنه المففله. (وهل الفرفمه للففله الأمفنه الأمهله وففرة على الففنل بفن ففك الأسلوب. وما ففلفها من مفرفاف وفرفكفب فم ففلفب المفق؟) من الأمفنه فمكن أن ففنلوال ففك الفراسف علاففف الفقه والففمفه والأفسففولوففا فف ففنن الأصلف، وفنلوالها فف الففن للفرنم. كفف ففنلوال علاففف الفقه وففنلوال من الأصل فف الفرفمه؟ هل ففلف الفاعل فاعلا، والمففل مففلا، والمففول فف مففولا فف؟ هل ففلف الففل ففلا، والصففه صففه؟ هل ففرفم "John killed Mary" فف "جون ففل مرئى"، لم "ففف مرئى ففلفها"، لم "ففلل مرئى"؟ وما دلالة ففك على ففلف الفرفمه. وسفلفها، واللوامل الموفره ففها؟ وكفف ففرفم وففه ففل ففنن الأصلف ومولفه؟ هل ففلف الففم ففهما، والمصففه صففه، وففلل ففلا. لم ففلف ففنن فف الفرفمه؟ وما هو ففل الفرفمه من الففنن بالفنسبه فف الأصل؟ هل ففل ففل الففم على ففها فف الفرفمه، ففلفل الففل ففلا، والأمر أمراف، وففلف ففها، وففلف ففها، وففلف ففها؟ ففن ففلفه "الففل الفباب" من مفراف "Would you please open the door" وففلفها؟ وأفن كفاة "مكن لو سمف ففك؟" من ففلظه "Shut up"، وهل ففرفب على "أنا أعلنكما زوفا وزوفا" فف الفلقه العربفه ففن الفقوق واللوفباف الفف ففرفب على "I declare you man and wife" فف الفلقه الإنجليزية؟ وهذا كله ففضم من ففلف الأسفله الممكنه فف فففل بفم ما ففلفل فراسف الفرفمه أن ففل فف ففلف الففلفه.

مثل: لوباما في القاهرة

"شكرا جزيلا، وطلب عسركم. إنه لمن دواعي شرفي أن زور مدينة القاهرة الإسلامية حيث تستضيفني فيها مؤسستان مرموقتان للقبلة. إحداهما الأزهر الذي بقي لأكثر من ألف سنة مفازة العلوم الإسلامية، بينما كانت جامعة القاهرة على مدى أكثر من قرن بمثابة منهل من مناهل التقدم في مصر. ومعا تمثلان حسن الاستقبال والاسجلم ما بين التقليد والتقدم. وإني ممنن لكم لحسن ضيافتكم ولخطوة شعب مصر. كما إني فخور بنقل أطيب مشاعر الشعب الأمريكي لكم مقرونة بتحيةة السلام من المجتمعات المحلية المسلمة في بلدي: "السلام عليكم". (من خطاب لوباما في جامعة القاهرة، ٤ مايو ٢٠٠٩).

في هذه الترجمة ما يشي بأن من ترجمها، وقد صدرت عن البيت الأبيض، ليس من أهل اللغة العربية، لولا أنه قد تركها زمنا لفقده الاحساس بجمالياتها، وبلاغتها. وتداولها بين الناس في الواقع، من ذلك ما نجد في "طلب عسركم" في ترجمة Good afternoon، وهي تحية لا ترد في لهجة من لهجت لغة عربية - في اللهجات العربية تحايا من قبيل "مساء الخير"، و"سعد الله مساعك/ مساعكم"، "مستكم الله بالخير"، وما شابهها. وفي ترجمة تلازم الخطي مقحم بين "التقليد والتقدم" - والصواب أن يتلازم "الماضي والحاضر"، و"التنم والتجديد"، و"الأصل والمعاصرة". وهكذا - وتلازم لخر بين "مناهل" و"التقدم" - والصواب أن ننهل من العلم والمعرفة والحكمة - ولها تعبير نلتن هو "المجتمعات المحلية المسلمة" - والملوف هو "الجمليات الإسلامية" في الولايات المتحدة - ومفردة نقتة هي "الأزنية" في وصف القاهرة - والصواب هو "العنقة"، وما إليها - وفي ترجمة ميلفتن على الأقل في "من دواعي شرفي" و"فخور" - والصواب في ذلك المقام "بمروني" و"يسعطني" وما إليها.

تحليل الخطاب ولغويات النص

مصطلح تحليل الخطاب

"مصطلح تحليل الخطاب مصطلح بالغ الغموض. سوف استخدمه في هذا الكتاب بمعنى تحليل القوى للخطاب الطبعي المكتوب أو الشفهي (المنطوق)، وعلى سبيل التبسيط، يشير المصطلح إلى محاولات دراسة تنظيم اللغة فيما يتجاوز مستوى الجملة أي على مستوى فوحدات اللغوية الأكبر، كما في المحادثات والنصوص المكتوبة. يضي هذا فيما يضي أن تحليل الخطاب يهتم بالمعنى الاجتماعي الذي تستخدم اللغة فيه وخصوصا ما يتصل منه بالتفاعل بين من يستخدمونها" (Stubbs، ١٩٨٣، ص ١).

والنص

"... نستطيع أن نقول إن أي استخدام للغة هو نص - وهو تعريف يقلل على سبيل محذور، لأن نصوصا كإبراهيم لينغويونبة تشكل إضافة إلى اللغة لتعقيد من مؤثرات صوتية وبصرية. ... أما مصطلح الخطاب فيشير إلى اللغة قبل الاتصال في الواقع بوصفها جزءا من الحياة الاجتماعية يرتبط بغيره من عناصرها ومكوناتها" (فيركف، ٢٠٠٣، ص ٣).

ترد التدوينية وتحليل الخطاب في غير موضع بوصفهما مترادفين، لو مصطلحين مختلفين لمفهوم واتجاه واحد، وترد التدوينية أحيانا بوصفها نوعا من تحليل الخطاب، هي بالفعل نوع من تحليل الخطاب، يركز على فعل اللغة، وما يرتبط بها من تضمين، وفترض، وكياسة، وقواعد تعلونية، ومقاصد، ونوايا، وطرائق توليل، لكنها تفتقر إلى شمولية تحليل الخطاب، وتشغاله بالنصوص، لا لجمال، في نفس هذا الفك - فك تحليل الخطاب - تدور كوكب ونجوم أخرى لا سبيل إلى الإلماسة في شرح تفصيلها، من اللسانيات الهنوية structural linguistics ومقولات رصدها في الغرب دي موسير عن اللغة والكلام والعلامة، وعلاقتها بسبقها، وبغيرها من

العلامات، إلى دراسات مستويات اللغة، والاسلوب، وتحليل الانواع الخطبية وفق جنس الخطاب، وغايته، والمشاركين فيه register and genre analysis، إلى دراسة بينات الكلام والتواصل اللغوي ethnography of speaking.

وكيف يتشكل بها، ومقولات فوكو عن القوة والمعرفة، ومقولات القوسير عن النظم والأجهزة الأيديولوجية للدولة ideological state apparatuses، ومقولات بورديو عن العنف الرمزي وأشكال القوة، والمفاهيم التي طوَرها جوفمان عن ماء الوجه والتأطير framing، وتبدل أحوال المشاركين في الخطاب، وتغير الانتماءات والمواقف footing، و"إدارة الانطباعات" أو تشكيلها impression management، ودراسات الشعر في المجتمعات البدائية وعند "أهل البلد" الأصليين، وكذا دراسة التراكم والصيغ الشعرية التي تنسم بها ثقافة مصنوعة ethnopoeitics، إلى الأنثروبولوجيا اللغوية واللغويات الاجتماعية الثقافية interactional sociolinguistics، وما بعد البنيوية، خصوصا عند باختين - فخيال الحواري dialogic imagination، وتعدد الأصوات polyphony في الخطاب - إلى علم العلامات semiotics، والدراسات الثقافية cultural studies.

ليس من غايات هذا التبسيط شرح تحليل الخطاب Discourse Analysis أو مراجعة نشأته وتاريخ وتطوره، ولا استقصاء أصوله الفلسفية واللغوية، لأن موضوع التبسيط هو التداولية - التي يراها بعض الباحثين نوعا من أنواع تحليل الخطاب - ولأن في دراسات أخرى غناء وكثافة في تناول أصوله فلسفية ولغوية وتاريخه (فضل، ١٩٩٢)، غاية هذا الجزء من تبسيط التداولية هو عرض بعض أدوات تحليل الخطاب ومقولاته ومفاهيمه، تاسيما لمنقشة لتحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السيلسي.

ولا سبيل إلى فصل الاشتباك بين تحليل الخطاب من ناحية، وتحليل النص أو لغويات النص Text Linguistics وتحليل الحوار أو المحادثة Conversation Analysis من الناحية الأخرى، لأنها تتلقى جميعا في غير موضع، وتتطلب من نفس الاشتغال بالسياق والجوانب الدلالية ووظائف اللغة، وتتجاوز حدود المفردة

والجملة وقجمة إلى ما يتشكل منه الخطاب أو النص - الذي يشمل من وجهة نظر تحليل الخطاب كل ما هو مكتوب أو شفهي. ويقتصر على الحوارات والمحادثات المنطوقة في تحليل المحادثة، وينطلق من النصوص المكتوبة لكن لا يتوقف عندها في تحليل النص. في قليل من المقاربات اللغوية. نجد تعاضدا بين الخطاب discourse والنص text، لكن الأول لا يقتصر. كما رأينا. على ما هو منطوق. ولا يقتصر فثني على ما هو مكتوب.

في تحليل الخطاب وتحليل النص، يبرز مفهومان تنبئين ترجمتهما في ثقافة العربية. وهما مفهوم coheslon ومفهوم coherence. سوف نجد من يطلع ما كتب في هذا الصدد باللغة العربية عددا مربكا من الترجمات من قبل "الاسجل" و"الترابط" و"التجس" و"الاستق". على سبيل التبسيط، يشير المصطلح الأول إلى ترابط المعنى. أو الوحدات النحوية (الشكل)، والثاني إلى ترابط المعنى أو الأفكار (المضمون). فإذا قلنا "ذهب الولد إلى المدرسة. التقى زملاء صفه وحياهم" فنحن وراء نص. على قصره وربما ففعله، يشم بالترابط والوحدة العضوية - ولتستقر من الآن على "السب" والحبك" تفاديا للالتباس والارتباك، حيث يرى بعض الدارسين العرب، ومنهم سربعية (٢٠٠٧)، أن للمصطلحين جذورا في البلاغة العربية. وهما على كل حال مصطلحان رشيقتان معبران. في النص القصير السابق. ترتبط جملة فثنية بالأولى من خلال الضمير المتصل في "صفة" والذي يعود على "الولد". ومن خلال العلاقة الدلالية، علاقة الكل بالجزء، بين "المدرسة" و"صفة" - هذا بالإضافة إلى السبك في كل من الجملتين على حدة.

ليس السبك والحبك كل ما في تحليل الخطاب أو تحليل النص من جوانب مهمة - فهما يستخدمان مجمل الأدوات التحليلية ومنها التضمين، والافتراض المسمق، وفعل الثقة، والمبدأ التعاوني. كما يرد تفصيل ذلك في الحديث عن تحليل فندي للخطاب - لكنهما مفهومان محوريان في كل الاتجاهات الوظيفية كما يرد لاحقا. وكم يعيب تفقد وكم علبوا - على الأقل قبل الحدثة وما بعد الحدثة - عن شعراء تفقد

بعض قصصهم الوحدة العضوية، وكـم شكـا المدرسون ويشكون فقـد ما يكتب تلاميـذهم القـرابط و"التسلسل المنطقي"، وكـم شكـا الممتحنون ويشكون فقـد اطروحات طلابهم الانتقال المنطقي المبرر من جزء إلى آخر. وكـم يشكو الجميع اليوم ما تحفل به الكتـبة العربية الصحفية من ولوات عطف لا تطف، وفواصل لا تفصل، وجمل ترصن دون مبرر أو منطق، ودون فواصل أو وقفات - وعلى المتضررين أن شاعوا أن يتكفوا بسبك النص وحبه بطرقهم الخاصة!

ولأن السبك من أشرط الخطاب والنص، فقد خصه هاليداي ورقية حسن بكتاب كامل (١٩٧٦) أصبح مرجعا لا يستغنى عنه الدارسون في تحليل الخطاب وما يرتبط به من اتجاهات تدلوية وظرفية. فيما يلي تبسيط بعض ما ورد في الكتاب من صنوف السبك، وأمثلة توضيحها من اللغة العربية. وطالما أن الغاية هي التبسيط، فلا ينبغي أن نتوقع تعبيرات من قبيل "إشارة إيموفورية"، أو "خارجية"، أو "خارجة" في ترجمة exophoric مثلا، أو تعبيرات من قبيل "الأنفـرة"، أو "الأنـفـرة المرتدة"، أو "الترجعة" في ترجمة anaphora، حتى لو كان ثمن التبسيط ترجمة كلمة واحدة في عبارة أو جملة.

§ طرائق السبك وأدواته

١. الإشارة reference

أ - إلى خارج النص exophoric :

على سبيل التمثيل: "ضع الكتاب على هذه الطاولة"، و"تلك السماء صافية".

ب - إلى داخل النص endophoric :

- إلى ما سبق anaphora — على سبيل التمثيل: "كما ورد في هذا الكتاب من قبل"، "في الفقرة السابقة كلام عن السبك"، "ذهب الولد إلى المدرسة، فتلقى زملاءه وحياهم"، "بعض ما قلت عار من الصدق"، وكما يشير هاليداي في المتن.

- إلى ما يلي cataphora - على سبيل التمثيل: "في الجزء الثاني، نتناول لغويات النص وتحليله"، "أجب عن السؤال الآتي"، "قرّنا ما هو فت"، "في الفصل الثاني، نتناول الرسالة أدبيات الخطاب الإعلامي بالمراجعة ونقله"، وكما يشير العنوان في النص.

٢. الاستبدال substitution

على سبيل التمثيل: "هذان الروايتان لك؟ أعزني واحدة؟"، "هل كتب تقرير؟ نقله فعل"، "اختلف الأصنفاء، فقلل أحدهم: لا بد أن نحتكم إلى طرف محبذ".

٣. الحذف ellipsis

على سبيل التمثيل: "ما اسمك؟ أحمد"، وتقدير الكلام "اسمي أحمد"، "وما اسمي أحمد"، "وتكرّما فتح الباب"، وتقدير الكلام "افتح أنت الباب"، "وعمّ وأصلها" عن ما هو ماذا، "وكيف حلك؟ بخير"، والأصل "أنا بخير". ويكون الحذف لتجنب الإطالة، وربما لأن المحذوف معلوم من السياق اللغوي وغير اللغوي. وربما للاحتراز، أو خشية نوي السلطان. وغير ذلك من مبررات.

٤. الربط conjunction

على سبيل التمثيل: "و" العطف والحال والمفعول معه، "وكن"، "وبل"، "ومن ثم"، "وعلى ذلك"، "وغير أن"، "وأي"، "ولف" التعطف والمبينة، "وعندئذ"، "وحينئذ"، وما شبهها، "وسوى"، "وحتى"، "ولكى"، "وأن"، "ولن"، "ولن" التعليل والوجود والمبينة، "ومن"، "ولينا"، "وحيثما"، "ومتى"، "وإلى"، "وكو"، "ومذ"، "ومنذ". لفظة طويلة، ولا سبيل إلى حصرها هنا.

٥. الصبغ اللدالي lexical cohesion

ومن ذلك التكرار، والتلازم اللدالي، والجناس، والترفع، والطباق، والحقول الدلالية: "سرور"، "البهجة"، "السعادة"، "الخبور"، "الفرح" (ترفع)، "والخير والشر"،

"والفضيلة والريثة"، "الافراح والافراح"، "الياس والامل"، "البدية والنهاية"، "والابيض والاسود"، وما بينهما، "يفعل ولا يفعل" و"محور الشر ومحور الخير" (طبق)، "البحر والمحيط والنهر والمضييق والخليج"، "والشمس والقمر والسماء والنجوم"، "القمم والقرطاس والريشة والحبر والطبعة" (حقول دلالية).

ماذا تفعل ادوات وطرائق المسبك تلك في النص؟ فلنتخيل نصا عربيا يخلو منها جميعا. او فلنتخيل نصا آخر ليس فيه من رابط الا "و" العطف. ليست طرائق المسبك وادواته فن مجرد حشو، بل هي التي تخلص الخطاب من قرتابة، وتضفي عليه التماسك، وتعين القمتقي على التعامل معه بوصفها علامات طريق.

لكن علينا ان نمارس ما نستطيع من

حذر في قراءة تلك الاثوات والروابط

مزلق ومحاويز

احيانا يصبح تحليل الخطاب نوعا من شرح النصوص او تخصيصها لكون تفسيره هو التويل، وحيثما يقتصر على مجرد مثل من هنا وآخر من هناك لتأكيد ملاحظة او فرضية، دون محاولة اكتشاف الامتداد الكبري والظواهر الدالة في الخطاب. وربما يجب لتحليل الاحيق المسبق في وجهة نظر او تفسير - او الانكفاء على نموذج او نظرية لا تصلح للتعامل مع ما يتناوله تحليل من نصوص. وقد يجب دراسات تحليل الخطاب ان تكتظ بالاقتراسات المطوكة من النصوص موضوع تحليل لكون مبرر او تفسير. وقد تقع بعض دراسات تحليل الخطاب في شرك التصميم والاعتقاد بان ما يصق على سيق يصق على غيره. هذا بعض ما يمكن ان يقع فيه تحليل الخطاب من مزلق. نجد شرح هذه الاخطاء وتوضيحها بالامثل في دراسة تشلزلز قتلبي Antaki وآخرين (٢٠٠٣).

- خصوصا ونحن نعاين نضج التحليل النقدي للخطاب وتحليل الخطاب السيلسي. وقد ورت في غير هذا الموضوع نمثلة لما يمكن ان تفعل حروف الجر، وما يمكن ان تفعل الاشارة من تصورات عن العالم، وعن الانا والآخر وما بينهما من تصور او جذاب. وقرب او بعد. ماذا نفرا في داة الربط في جملة كهذه: "انه فقير، لكنه يحش في سعادة دائمة؟" لطنا نلحظ تعارضا بين الفقر والسعادة، وتضمينا مفاده ان القى لا الفقر هو المسبب الطبيعي للسعادة، وان حالة الشخص الذي تشير اليه الجملة مجرد استثناء من القاعدة.

وفي موضع آخر، يرد حديث عن الثنائيات التي يحفل بها الخطاب السياسي المعاصر، خصوصا تحت تأثير مقولة صراع الحضارات/ الثقافات، وبعد أحدث الحادي عشر من سبتمبر، والحرب على أفغانستان، وغزو العراق. في ترسيخ هذه التوقيات تحتشد مفردات الخير، والعدل، والحرية، والسلام، والديموقراطية، في طبق حتمي مع مفردات الإرهاب، والتطرف، والقمع، وتحتشد مفردات الجهاد، والاستشهاد، والمقاومة، في طبق آخر مع مفردات وعبارات الاستعمار، والحروب الصليبية، والغرب المتحرر، والاحتياز، والكيل بمكيالين. وحين نقرأ في سياق مفاهيم تقريرنا لخبريا عن "غرق عبارة" لأن المسافرين لم يتحلوا بالصبر وتدفعوا حتى تجاوزت العبارة حمولتها الطبيعية، فلا ينبغي أن نكتفي بحصر الروابط وتصنيفها إلى روابط سببية، لأن الأسباب الحقيقية ربما تختلف عما ورد بعد "لأن" وقبل "حتى" ولم يكن للمسافرين من يد في غرق العبارة. وحين يداهنا إعلان تجاري بتغيير محكم من قبيل "بتمس للحياة ... بتمس لـ ... (اسم المنتج)"، فلا ينبغي أن يكون مطلقا من التحليل مجرد رصد التكرار - تكرر فعل الأمر وتكرر الفينية النحوية التي تتكون من فعل الأمر والفاعل المستتر والجار والمجرور، لأن التكرار هو الذي يحقق بلاغة هذا النص. وينقل رسالته، وهي أن المنتج المعن عن الحياة والحياة هي هو، ولا حياة للمستهلك المستتر في الجملة، المستهدف في الواقع، بدون هذا المنتج. من هنا، لم يعد كافيًا بحال من الأحوال عند تحليل السبك في نص سياسي أو إعلامي أن نكتفي بحصر الأمثلة وتصنيفها، وأن نشعر بالرضا حين نجد في النص مثلا أو مثلين لكل فئة من فئات السبك كما حذوها هالداي ورفية حسن. لا مفر من إعادة قراءة قوائم السبك وطرائقه في ضوء مقولات ومفاهيم تحليل الخطاب السياسي والتحليل النقدي التي ترد مناقشتها فيما بعد.

نفس هذا الحذر ينبغي أن نتحلى به ونحن نتناول الحبك. وهو قرين السبك الذي لا ينفصل عنه - إلا لغايات بلاغية خاصة - من منطلق ما ترند في فيلم سينمائي مصري معاصر على لسان أستاذ التمثيل حتى أصبح مثل سخرية طلابه وطالباته.

وهو أن "الشكل والمضمون وجهان لعملة واحدة"، "الملك والكتابة". وقد تقدم أن الحبكة هو ترابط المعنى والمجسم، في علاقات سببية، أو تفسيرية، أو تمثيلية، أو علاقات تعارض، أو مقارنة بين الجمل، أو الانتقال من الخاص إلى العام، ومن العلم إلى الخاص، وعلى نطاق أرحب، يتجلى التأكيد على الحبكة في توقع الوحدة القصصية في النص الشعري منذ كانت القصيدة الجاهلية تستل على الوقوف على الأطلال، ثم نكر الرحلة، وبلوغ الحببة، ثم بعض الحكمة والنصح، إلى أن تبلورت مفاهيم البناء الروائي والقصصي التقليدي الذي ينتظم وصف المكان، وتحديد الزمن، وتقسيم الشخصيات، ثم تساعد الأحداث إلى نقطة تصادم أو كشف، ثم الزواج أو فبراءة أو غير ذلك من النهايات السعيدة التي لم تعد لا هي، ولا خطية الزمن من بداية إلى وسط إلى نهاية، ولا الوصف التقليدي للمكان - وقد اختلط الوافقي بالفراقي والخيالي والأسطوري، واختلط الوعي باللاوعي - من سمات المرد المعاصر.

ونجد التأكيد على الحبكة كذلك في تعاليم التسلسل المنطقي، وكتابة المقالة الدراسية من مقدمة، ووسط، وخاتمة، مع ما يلزم من لمعة توضيحية، وتعليقات، ومقارنات، وارشادات كتابة البحوث الطمية، والمقالات، والأخبار الصحفية. كما تطور جنس خطابي جديد، تبلورت معه طرائق الحبكة الملائمة له. حتى إذا استقرت، شرعت فئة من الكتاب والمبدعين في الخروج عليها رغبة في تحقيق غايات بلاغية جديدة، وسجلا مع سبلات وظروف تاريخية متغيرة، لأن المفنات اليوم لا تصل بنا إلى النتيج بنفس السهولة والثقة التي كانت تصل بها في الماضي (ليس كل من يزرع اليوم يحصد، ولا كل من يحصل على "شهادة جامعية" يجد وظيفة، وليس "قلان" مفقرا، من منطلق أنه إنسان، وأن كل إنسان بطبعه مفقر)، حتى تتماهى الحدود بين الأجناس الخطابية، وتتداخل الأنواع، وتتطور أجناس خطابية جديدة، في تنظر من يفخر بالخروج على قواعدها.

ولأنّ للسبك والحبك هذه الأهمية والتأثير، انتقلا من تحليل الخطب إلى لغويات النص التي يرى بلخثون، من أمثال روبرت دي بوجراند de Beaugrande، أنها يجب أن تتشغل أول ما تتشغل بشروط النصية، أو النصوصية، textuality وضرورتها - على مضي ما ينبغي أن يتحقق في مجموعة من الجمل أو التركيب اللغوية حتى تستحق أن تسمى نصاً.

وقد ألف دي بوجراند ودريسلر Dressler كتابها كاملاً (١٩٨١) لمنهضة شروط النصية بعد مراجعة مهمة لنشأة وتطور علم لغة النص أو لغويات النص. فيما يلي شرح وتبسيط هذه الشروط - ما عدا السبك والحبك فقد تلخص الكلام عنهما - ونوضحها بالأمثلة، ونماذج مما يتردد من ترجمتها إلى اللغة العربية.

١. التماسك والتماسك والسبك cohesion:

'المشكلة هي قن بلضبط يا حضرة الصاغ، لا ينفع في هذه الدنيا أن تكون نصف طبيب ونصف شيرير، نصف وطني ونصف خائن. نصف شجاع ونصف جبان. نصف مؤمن ونصف عاثنق، دائماً في منتصف شيء ما' (بهاء طاهر: ولعة قفروب، ص ٢٠٢). في هذا الاقتباس يتحدث "محمود" إلى نفسه. وقد أخرجها، وفصلها عن نفسه في لحظة وعي ومحاسبة، حيث تلمي الإشارة وصيغة المخاطبة بهذه المسافة التي يبتعد بها "المتكلم" عن "المخاطب" - مع أنهما واحد - ويتضفر طباق بين الجميل والقبيح في نفس المتكلم المخاطب وللترانف بين جوانب الفبح وبين جوانب الجمال فيها للتصير عن روح ممزقة، وذات منفصمة، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فكيف يقر لها قرار؟

٢. التقارن والتناسق والحبك coherence:

"قال دبشليم الملك لبديبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل. فاضرب لي مثلاً في شأن الذي يضع المعروف في غير موضعه، ويرجو الشكر عليه. قال الفيلسوف: ليها الملك أن طباع الخلق مختلفة. ولين مما خلقه الله في دنيا مما يمشي على أربع أو على

رجلين أو يطير بجناحين شيء هو أفضل من الإنسان، ولكن من الناس قير والفاجر. وقد يكون في بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه نمة. ونشد محمداً على حرمه، وشكر للمعروف، وأقوم به، وحينئذ يجب على ذوي العقل من الملوك وغيرهم أن يضوا معروفيهم مواضعه، ولا يضوه عند من لا يحتمله ولا يقوم بشكره... (ابن المقفع: كلیلة ودمنة، باب السائح والصيغ). في كتاب كلیلة ودمنة طبقت متداخلة ومتراكبة من السرد، بحيث تحتوي القصة الإطار. قصة دمك والفيلسوف، مبرراً للقصة التي يرويها الفيلسوف، وهو النزول على رغبة دمك والاجابة عن سؤاله. وتتوالد القصة من القصة، وفي كل مرة نجد في فنتية تبريراً منطقياً للأولى، وفي الأولى توضيحاً لما غُض في الثانية، أو إجابة عن بعض تساؤلاتها. هذا التبرير هو الذي يحفظ للقصص حيكها ومنطقها - هذا بالإضافة إلى تنمات القصص إلى جنس خطبي لثير هو الأمثلة fable، أو الحكاية على لسان الحيوانات، ودخولها في باب النصح والتعليم، وما فيها من مجاز وتولوجية دلالية تتيح لمتعة فبرينة لمن أرادها، وتتيح الحكمة والفلسفة لمن أرادها. وفي كل مرة يفتح الباب بما يقول الملك - "قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثلاً في إشارة بليغة إلى ما سبق وإلى ما يتبع من الحكايات.

٣. القصدية والقصد intentionality:

وراء كل نص إرادة إنسانية واعية، وغاية مقصودة، وليس ظاهر النص كبلطنه، إذا جاز التعبير، فربما تسأل عن الوقت وأنت تقصد أن توحى إلى ضيفك أن يذهب لأك مرقى، أو لديك التزامات وولجبات أخرى معلقة - سواء على ضيفك فهم ما ترمي فيه لم تم يفهم. وقد تقدم للكلام عن الإنشاء في البلاغة العربية، وفعل اللغة والتضمن، والتأثير، أو للمعنى المقصود في التدلالية في نمختها العربية، غير أن مزيداً من التوضيح لن يضر. ربما نجد في الخطاب ما يشير إلى قصد منته - "ريد أن أستاذك"، "ترجو أن نحيطكم علماً"، "على سبيل الاعتذار" - مع ضرورة توخي الحذر، لأن المقاصد الحقيقية ربما لا تتسجم مع ظاهر الأقوال، كما نعين في غير

موضع من هذا التبسيط. تفتتح أمانة بنت الحارث وصوتها ابتنتها لم يباس - وهي إحدى رواتع النثر العربي التي تكفي إزاءها في الغالب بالانقباس أو "مسوء الاستعمال" لتحقيق مصالح شخصية ذكورية - بتحديد غايتها ومقاصدها البلاغية - "تذكرة للفاصل ومعونة للعقل" - والاعتذار عما يمكن أن يقع من مسوء الفهم - "إن توصية لو تركت لفضل لب، تركت لذلك منك" - وتبرير ما سوف تقدم من النصيحة. ناهيك عن الاستمالة والتحبب والتكريم للآرام - "أي بنينة" - وهو إن امرأة استقت عن الزوج لضي أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه" - حتى تؤتي النصيحة ثمرها المرجوة.

الجنس الخطابي لا الأنثى

"لا تستمد اللغة جمالياتها من تكوينها الذاتي فقط، أي باعتبارها صوتاً وترهيباً ومجرات ذات طاقة تأثيرية مباشرة، ولكن أيضاً من علاقتها بالجنس الأنثى الذي تدعنه له في صوغ لبيتها، إذ تصبح اللغة بموجب هذه العلاقة في أفق جمالي جديد حيث يصد المبدع إلى نسج خيوطها واختيار قوتها وفق ما يقتضيه هذا الإطار من مكونات وثوبت" (مشبال، ٢٠٠١، ص ٥١-٥٢).

هذه إشارة مهمة إلى نوع الخطاب وجنسه وتأثيره على اللغة والأسلوب، مع الحفاظ للآرام على "الأنثى" وضرورة استبدال "الخطابي" بها، مع ملاحظة أن الباء تلحق بالمتروك، كما يرد في غير هذا الموضع، وعلى "المبدع"، لأن كل استخدام للغة ينتظمه نوع أو أنواع خطيبية.

وتختتم أمانة نصيحتهما بالبدعاء لابنتها، فكيف لا تقبل الابنة لو لا تسمع والنصيحة ما بين تحسب وأمنيت طيبة؟ لعل لم يباس لم تخطئ مقصد والدتها، ولم تجد في النصيحة نوعاً من القهر لو توصية: "أي بنينة: إن التوصية لو تركت لفضل لب، تركت لذلك منك. ولكنها تذكرة للفاصل، ومعونة للعقل. ولو إن امرأة استقت عن الزوج لضي أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه. ولكن النساء للرجال خلقن. ولهن خلق للرجال".

٤. التقبليّة والقبول والتقبّل والمقبولية **acceptability**:

وهي أن يتوافق النصّ مع توقعات المتلقي - مع ضرورة أن يتحلى المتلقي بقبول
راء النصوص التي تنتهك الحدود النوعيّة والتّنتظيرات النّقدية. وتخرج عن وفق
توقعاته بغرض صياغة توفّعات وخصائص نوعيّة جديدة.

حين نقرأ خبراً صحفياً، نتوقع أن نجد فيه إجابة عن أسئلة يتطّرحها طلاب وطالبات
الاعلام - "من؟" و"ما؟" و"متى؟" و"أين؟" و"لماذا؟" و"كيف؟" - كما نجد في هذا
الخبر:

"بدأت روضة الباقوت (من؟) في منطقة مصفوت النّتيجة التّابعة لمنطقة عجمان
التّعليمية (أين؟) بتطبيق مشروع الحافلة المرحّة (ما؟) الذي يصنّف الأول من نوعه
على مستوى الدولة بدعم مباشر (كيف؟) من صاحب المموّ الشيخ محمد بن راشد آل
مكّوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي (من؟) الذي امر بتوفير
الدعم اللازم للمشروع عقب زيارته للمناطق النّائية العام الماضي (متى؟)"
(جريدة البيان، ٣٠ مايو ٢٠٠٨، الأقواس والأسئلة ليست في الأصل).

٥. الإعلاميّة والإعلام والإخبار **informativity**:

كل نصّ يخبر بشيء - حتى الكلام "الفارغ" يخبر بشيء عن صاحبه -
وتتفاوت النّصوص في نوعيّة المعلومات أو الحقائق التي تنقلها من علميّة إلى أدبيّة
وصحفيّة، إلى غير ذلك، وفي نصيبها من الصدق أو الكذب، كما تتباين الحقائق من
حقائق طبيعيّة إلى حقائق شعوريّة أو روحيّة، فليست "حقائق" فيزياء مثلاً كحقائق
الشعر.

ولعلّ من نواحي تطوّر التحليل النّقدّي للغة تناول "الحقيقة" و"بهرمان" و"فبيّة" من
منطلق أنّها مفاهيم نسبيّة، تتباين من ثقافة إلى ثقافة، ومن نسق معرفي إلى آخر.

٦. الموقفية والموقف والمناسبة أو الملاءمة :situationality

لكل مقام مقال، ولكل حادثة حديث، "حكمة بالغة. فما يروق لزيد ربما ينفر عمرا، وما يدره قوم ربما أعجز آخرين.. فلتؤطر حوارك بالحال من حوك، وتجنب التحديد الواضح عند حوار ذوي الروح النافذة، حتى لا يستعجلوا عليك، وتحفظ خط رجعة مفتوحا من ورائك.

مصطلح وترجمة

"يمثل مصطلح الموقفية تسمية غنية للعوامل التي تقم صلة بين النص وبين موقف لواقعة ما سواء أكان موقفا حضريا أم قبلها للاسترجاع، ونلغا ما تتحقق تأثيرات مقام سياقي معين بدون حدوث متوسط أي مدى تغذية قمره بمعتقداته وأهدافه الخاصة للنموذج الذي يقيمه الموقف الاتصالي المحلي" (الفقرة الأولى من الفصل الثامن - الموقفية :situationality - من ترجمة إيهام أبو غزالة ككتاب مختل في علم لغة للنص *Introduction to Text Linguistics* هذا <http://www.beaugrande.com>). هذا مثل آخر للكتابة التداولية العربية التي قد لا تصل بالقارئ إلى شئ، على ما فيها من جهد وبخلاص، ربما لإصرارها على الترجمة الحرفية.

وقد يتعذر الحوار في أسر ما، لسبب أو لآخر من الظروف الاجتماعية أو السياسية أو غيرها، ولذا كان لزاما على المحاور اللطن أن يقدر الأمر قدره، وأن يزن المصالح والمفاسد، وألا تغلبه شهوة الحديث عن تقدير العواقب...." (طريق الحبيب: "لكل مقام مقال".

<http://www.asyeh.com>
٢٠٠٨ مايو ٢٠٠٨، بنصرف
(يسير)

٧. النصوصية، والتشاص، والتضمين :intertextuality

ومن تلك الترجمة، والانتباس، وإعادة النشر، والمعجزة، والأسلية، أي تقليد أسلوب نص سابق، والمرقة الأدبية وغير الأدبية، والتلخيص، والتعقيب، والمراجعة. "ومن الإهداءات المثيرة إهداء كتبه الكاتب السياسي الراحل 'أحمد بهاء الدين' في: 'قرقيب عزيز منير حافظ، الذي كان له فضل اختصار الكتاب ليوظهر في هذا الحجم قرشيقي..'.
ونك بتاريخ ١٩٥٦/٢/١٤، أي في مقبل رئاسته لتحرير مجلة صباح الخير. وكان

الكتاب: شهر في روسيا صاغرا عن دار النديم. ويعتبر هذا الكتاب من أجمل ما كتب بهاء. وفيه يتحدث عن روسيا من الداخل، ويطلق عددا من الأفكار الجديدة أو المسددة التي كانت منتشرة آنذاك مثل قوله: 'إن روسيا لا تحكمها الوزارة التي يرأسها بونجاقين، ولا الجيش الذي يقوده زوكوف، ولا الحزب الشيوعي الذي يتولى خروتشوف منصب سكرتيره العام.. إن روسيا تحكمها نظرية!'. المهم هل كان بهاء صادقا في إهدائه إلى الرقيب .. ولريد أن أتوه إلى أن منير حلقه. أصبح فيما بعد مديرا لمكتب شمس بدران" (شعبان يوسف: "إهداءات على الرصيف" جريدة أخبار الأمب، ٢٥ مايو ٢٠٠٨).

1

التناص وما إليه

ذهب جيرار جينيت Genette (١٩٩٧) إلى أن علاقات النص بنفسه وبغيره من النصوص يمكن تصنيفها إلى ما يلي:

§ **Intertextuality** (نظر المتن).

§ **النص الموترى paratext** - المقدمات، والهوامش، والشروحات، والضاوون الترميمية والفرعية، والمراجع، والإهداءات، وما إليها مما يحيط بالنص.

§ **المصادر النصية**، أو الجنم الخطابى **architext** الذي ينتمي إليه النص.

§ **النص الشارح metatext** - من ذلك ما نجد في الاقتباس من تقارير السيدة راء.

§ النص اللاحق hyper، وعلاقته بنص سابق hypo، ربما على سبيل المحاكاة الساخرة أو النقص أو المعارضة.

§ النص الفلق hyper text، بمضاه الإلكتروني الذي نجده على صفحات "شبكة العنكبوتية" أو الإنترنت.

إن حديث التنصص وما يتصل به حديث بطول، من توظيف النصوص لأغراض اعلانية ترويجية - "عند جبهة الخبر اليقين" (إعلان حليب جبهة) - إلى توظيفها لتحطيق غايات سياسية، إلى "المسرقات الأدبية" - ولا بد من إعادة النظر في صفة "الإنشئة"، لأن المسرقة لا يمكن أن تكون "أدبية"، ولأنها تقع في الألب وفي غيره من أنجاس الخطاب. في البلاغة العربية تصنيف طريف لتلك المسرقات إلى "مسح"، و"مسخ"، و"سليج" - وتعني على الترتيب: سرقة اللفظ والفكرة معاً، وسرقة بعض اللفظ، وسرقة المعنى دون اللفظ. ويتصل بذلك ثمانية أمور هي "الانقباس" - إعادة إنتاج جزء من نص سابق أو معاصر في نص آخر - و"التضمين" embedding - وهو انقباس فيه تصوير أو اجتزاء وفق ظروف النص الجديد - و"الغذ" versification - وهو نظم النثر - و"الحل" - وهو نثر فنظم - و"التمسيح" allusion - أي الإشارة إلى مكان أو شخص أو قصة معروفة - والابتداء - أو براعة الاستهلال - والتخلص - الخروج من المقدمة إلى الموضوع - والانتهاء - أو حسن الختمة (الهاشمي، ١٩٩٩، ص ص ٣٢٥-٣٣٣). في ما سبق، لابد أن نضيف المحاكاة الساخرة، أو الباروديا parody - محاكاة نص سابق أو معاصر بغرض المسخريه منه، أو من مؤلفه، أو من سيقه، أو من بعض ما يتناول النص الجديد، أو من هؤلاء جميعاً، كما نجد في الشعر "الحلمنتيوشي" في مصر مثلاً - والمعارضات والنقائص.

علاقات بين نصية

(١)

ككل قصة بطبيعة الحال مقدمة، فإذا كانت القصة "موباساتية" نسبة إلى الكاتب الفرنسي الشهير جى دو موباسان تطرح المقدمة عناصر حدث ينطور وينتقد لينفجر في الختام. وإن كانت القصة تنحو منحى الحادثة لو ما بعدها فلا ضرر في أن تكون علاقة المقدمة بالختامة غير ظاهرة للعين، ولا مانع من نهاية مطلق ومفتوحة. وفصتي؟ لا مقدمة لها سوى خطبة للمؤلفة تفتح فيها باب الكلام، يطبها مرد فواقعة التي تنتهي بنهاية يمكن ببعض للتفاضل وشيء من الحكمة، اعيرها نهاية سعيدة (رضوى عشور: تقارير السيدة راء، ٢٠٠١، ص ١٧-١٨).

(٢)

الشاعر المظم

ابراهيم طوقان (١٩٠٥-١٩٤١)

شوقي يقول وما درى بنصيبتي	فم للمظم وفيه شجلا
فقد فديتك هل يكون شجلا	من كان للشراء الضفر خبلا
ويكاد يلقني الأمير بقوله	كلا المظم أن يكون رمولا
لو جرب فتطيم شوقي مناعة	لقضى الحياة شقوة وخمولا
حسب المظم غنة وكأنة	مراى الفتقر بكرة وأصلا
منة على منة إذا هي صلحت	وجد قصي نحو القيون سيلا
ولو أن في التصحيح نقلا يرتجى	واليك لم ك بالقون بخلا

لكن أصلح غلطة نحوية	مثلا واتخذ كتيب نبلا
مستنهذا بالفِرْ من فياته	لو بالحديث مفصلا تفصيلا
وأغوص في الشعر القديم فالتقي	ما ليس مكتيبا ولا مبثولا
وكذا لبث سببونه من البلى	وتوبه من أهل الفرون الأولى
فلو (حمرا) بغد تلك غله	رفع المصنف إليه والمفغولا
لا تعجبوا إن صحت يوما صيحة	ووقفت ما بين الهوك قسلا
يا من يريد الانتحار وجنته	إن المظلم لا يعيش طويلا

النص الأول من قبيل الكتابة عن الكتابة، أو الكتابة الشارحة، يتناول المقدمة والنهاية بوصفهما من مكونات المراد، الأولى قد تكون تقليدية أو حديثة، والثنائية مفتوحة أو مغلقة. يبقى الانشغال بالكتابة - إضافة إلى الانشغال بالعلم - سمة مهمة من سمات المراد العربي الحديث.

النص الثاني من قبيل الباروديا أو المحاكاة الساخرة - أو المعرصة الشعرية - وفيها سخر (النص الراهن) ومسخور منه (النص السابق: نص شوقي وسلوك المجتمع المعاصر إزاء المعظم) وموضوع السخرية (قيمة المعظم). ليس المقصود هنا أن الشاعر يسخر من أحمد شوقي أو نصه المشهور عن المعظم، لكنه يرثي فيما باتت لو كانت، ويسخر من انهيار صورة المعظم وقيمه في المجتمع المعاصر.

لما مفتوح شفرة المحاكاة فخرية ميسورة، ومنها الاستهزاء والاحقة في نص شوقي في "شوقي يقول..."، وتشابه الوزن والقافية في النص الراهن والنص السابق.

بين المعلم والمتعلم

من الأطروحات المؤسّسة في تحليل الخطاب ما طوّره سينكلير Sinclair وكولتھارد Coulthard (١٩٧٥) في دراستهما التفاعلات اللغوية بين المعلم والمتعلم في الفصول الدراسية. في هذه الدراسة المهمة تمييز بين تفاعل /تبادل لغوي/ ككلامي exchange والنقطة أو الانتقال move والفعل لغوي act. فمن الأفعال الكلامية - وهي الوحدات الصغرى ومن أمثلتها السؤال، والامر، ونهي، والخبر، والنداء. وما إلى ذلك - تتشكل النقّلات - وهي النوبات في بعض كتب فترات، وهي في دراسة سينكلير وكولتھارد استهلال initiation، أو ردّ response، أو تعقيب على الرد feedback - ومن مجموع النقّلات يتكوّن التبادل اللغوي. ويرد الاستهلال عادة في صورة سؤال أو طلب أو امر، كما نجد فيما يلي:

• المدرس: يا مريم، ما هي عاصمة الصين؟

• التلميذة: بكين.

• المدرس: أحسنت.

هذا مثل غلبته التيسيط لا الاختزال أو الحصر. في هذا المثل ثلاث نقّلات تتكوّن لولاها من قطي كلام: (١) نداء وسؤال، ثمّ (٢) إجابة، ثمّ (٣) تعقيب على الإجابة.

ليس في الثقافة العربية - على قدر علمي - تناول الحوار بين معلم والمتعلم بهذه الطريقة الوصفية البنائية، غير أنّ فيها ثروة من المقولات والمبادئ التي تتدرج تحت لقب العلم والمتعلم، ويغلب عليها النصّح والإرشاد، لا الوصف، من قبيل ضرورة التعريض لا التصريح في مقام زجر العلم المتعلم، لما للتصريح من ثلر نفسية وخيمة، ومن قبيل ما ورد في تكثرّة المنامع والمتكلم في حب العلم والمتعلم للشيوخ بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله الكنتقي المتوفى سنة ٧٢٢هـ:

”جرت العادة أن يقول المدرس عند ختم كل درس: والله أعلم. وكذلك يكتب المفتي بعد كتابة الجواب: لكن الأولى أن يقال قبل ذلك كلام يشعر بختم الدرس كقوله: وهذا نفعه. أو ما بعده يأتي إن شاء الله تعالى. ونحو ذلك ليكون قوله: والله أعلم خلاصاً لفكر الله تعالى. ولقصد معناه، ولهذا ينبغي أن يستفتح كل درس بسم الله الرحمن الرحيم ليكون ذكراً لله تعالى في بدايته وخاتمته“.

التحليل النقدي للخطاب

"التحليل النقدي للخطاب" هو أفضل ما في الإمكان في ترجمة مصطلح Critical Discourse Analysis، وهو الترجمة الترجمة على كل حل. لذا "تحليل الخطاب النقدي" فربما ينجم عنه التباس المصطلح بالنقد الأدبي. لأن المقصود ليس تحليل "خطاب النقد الأدبي" (وهو ما يلعبه النقد الشارح والنظرية النقدية الشارحة). المقصود هنا هو تحليل الخطاب من وجهة نظر نقدية، فهنا تحديد وتنفيذ ومساعدة، على مضي أن التحليل النقدي للخطاب لا يتكفى على السياقات اللغوية والنصية المحدودة بل يتجاوزها إلى السياقات الاجتماعية المهيمنة، ولا يتخدد بالمفولات الجاهزة، ولا بما تمارسه الأيديولوجيات من تعصية، وتعيم، وخداع، ولا يتوقف عند ما هو كقن، بل يتجاوزها إلى ما يمكن وما ينبغي أن يكون، ويسعى إلى أحداث تغييرات اجتماعية تبدأ من الوعي ولا تنتهي به (هامرسلي Hammersley، ١٩٩٧، ص ٢٣٨).

إذا كان تحليل الخطاب ولغويات النص يضيفان إلى تداولية بعدا نصيا كليا ويخلصنها من تكلفاتها على المفردات والعبارات والجمل والحوارات المنجثة من نصوصها أو المفتحة، فإن التحليل النقدي للخطاب Critical Discourse Analysis (CDA) - وهو ينتمي إلى نفس الاتجاهات الوظيفية في تناول اللغة والخطاب ويتغلل معها في رفض السلوكية والبنوية المجردة، وفي الاهتمام بالسياق والمقام والوظيفة والغاية - يخلص هؤلاء جميعا من "قراءة"، ومن تجاهل السياقات الاجتماعية والسياسية، ويضيف تشغالا بما لا بد من الاشتغال به، وهو صراع القوى والإرادات والمعتقدات، وبالتحليل، والاحتيايل، والقمع والقهر، وتمييز، ودعاية وقرصنة، و"غسل المخ"، والتشويه والتجميل في اللغة وبكلفتها. إلى ما سبق، يسمم تحليل النقدي للخطاب بالوعي بالذات وتوجهاتها وتحيزات، لأن من يمارسونه هم بشر كالبشر.

لأن أسس ومنطلقات التحليل النقدي للخطاب فتشمل اهتمامه بالقضايا الاجتماعية. لأن الخطاب ظاهرة اجتماعية، وتسليمه بأن القوة والهيمنة يتم إنتاجهما وتداولهما أو مناهضتهما باللغة وفي اللغة، وأن اللغة تشكل المجتمع والثقافة كما تتشكل بهما. وأن اللغة أو الخطاب حقيقة تاريخية متغيرة وقيل اجتماعي مؤثر. وأن اللغة تحقق غايات إيديولوجية. وأن هناك ما يتوسط العلاقة بين النص والمجتمع/المعلم ألا وهو فوعي أو الإدراك. وأن مهمة تحليل الخطاب لا تقتصر على الشرح والوصف بل تتجاوزهما في التفسير والتأويل (فيركلوف ووداك Fairclough and Wodak, ١٩٩٧، ص ٢٧١-٢٨٠). وقد يكتب الاسم الأول في العربية هكذا "فيركلوف" أو "فيركلوف" ونقشي هكذا "ووداك".

من الواضح أن القوة power (ومرافقاتها وبنات عموميتها فسلطة authority وهيمنة hegemony والمسيطرة أو التحكم control) والإيديولوجيا ideology (أو المعتقد، أي كل ما نؤمن به، وتدفع عنه من أفكار، وتوجهات، وميول، وقيم) تحتفظ بها لأنفسنا أحياناً، ونحاول فرضها على الآخرين أحياناً) هما في صدارة اهتمام التحليل النقدي للخطاب. درجات ومرافقات القوة التي سبقت مرادها امتلاك ما لا يمتلك الآخرون، وكلها تشير إلى قدرة على التأثير في سلوك الآخرين وأفعالهم. أو أفكارهم، أو مواقفهم (فان ديك van Dijk, ٢٠٠٧، ص ١١٢)، وهي قدرة تمنحها التباينات الاجتماعية، أو الاقتصادية، ودرجة اقرب من مصادر المعرفة والمعلومات، والخبرات المكتسبة، والفروق الجسدية أو الجنسية أو العرقية. ولجادة بعض اللغات المهمة. وكما أن اللغة قوتها وتأثيرها، فلقوة لغتها، على مدى أن اللغة بوسعها أن تؤثر في سلوك البشر، وتوجهاتهم، وأفكارهم - نظراً كيف ينسق البشر وراء الشائعات، والإعلانات، والحملات الدعائية والترويجية، والشعارات، كيف تؤذي الآخرين باللغة، وربما تسيطر عليهم، وكيف نستعدهم أو نخرجهم من عزلتهم، وكيف نرفع من أقدارهم أو نحط منها. وكيف نشوههم أو نجعلهم - كيف نقلل باللغة، بالوشاية، أو فتريض، أو يغار الصدور، كيف نجذب الآخرين أو ننفرهم، نرغبهم أو نرهيبهم. هذه بعض قوة اللغة. وللقوة لغتها كذلك -

لأصحاب النفوذ، والعلماء، والخبراء، والمسؤولين، والقادة والروماء، ورؤساء الأعمال، والمشاهير والنجوم، وغيرهم. وإذا كانت قوة اللغة **power of language** من تشغلات نظرية فعلال اللغة والبلاغة الكلاسيكية من قبلها. كما يعتقد بول تشيلتون Chilton وكريستينا شيفنر Schaffner (٢٠٠٢، ص ١)، فإن لغة القوة **language of power** من تشغلات تحليل النقدي للخطب وتحليل الخطاب السياسي من بعده، كما يرد فيما بعد. هذه ليست نهاية قصة القوة، بل مجرد إيجاز يظل جنور المفهوم عند فوكو وغيره، وتطور المفهوم في الدراسات الدولية من برون وجبلمان (١٩٧٢) حتى بلغت التحليل النقدي للخطب.

لما الأيديولوجيا فهي كل ما نؤمن به، وقد أسهب فلان ديك (١٩٩٥، ص ٢٤٤ - ٢٤٧) في كلام عنها، وتحديد سماتها، ومنها أنها تتعلق بالآراء وقوعي، لأنها مجموعة من المعتقدات والأفكار تتوسط، كما ورد من قبل، وكما ورد في تحليل الحيل اللغوية العربية وانتهكتها المبدأ التعاوني، بين اللغة والعقم المحيط بها. بين ما نقول وما يقال لنا، وما نفعل وما يفعل بنا، وهي إلى تلك اجتماعية، حيث تميز جماعة عن غيرها، أو فرداً عن غيره في محيط اجتماعي. وربما تتحدد مكانة بعض الأفراد أو الجماعات في مجتمع على أساس ما يؤمنون به. وما ينتمون إليه من اتجاهات فكرية، أو دينية، أو سياسية، وربما يفسد الخلاف في العقيدة أو الفكر أو أسلوب الحياة - رغم آف القول المأثور - كل قضايا فرد بين الأفراد أو الجماعات، وربما تنجم عنه حروب، وثورات، وعداوت، وربما لا يتجاوز بعض المشكلات والفنكات. هكذا تتباين الأيديولوجيات والمعتقدات والخلافات التي تنشا فيما بينها في سطوتها وحنيتها. ومن سمات ما نؤمن به من أفكار أو معتقدات أن معايير الصواب والخطأ لا تنطبق عليها بنفس الطريقة التي نجد في تحقيق النظم الطبيعية، وليست كلها من التحقق على كل حال، فكل جماعة ترى فيما تؤمن به عين الصواب: (كسل حزب بما لديهم فرحون) "سورة الروم: ٣٢". تتباين المعتقدات والأيديولوجيات كذلك في عصفها وتطعيمها، من مجرد تفضيل طعام على غيره، أو لون على غيره، أو فريق

كرة قدم على منافسه، إلى الانتماء إلى اتجاه سياسي، أو شيعية، أو ملة، وتباین مواقف البشر مما يؤمنون به، من تمسكك يبلغ حد التطرف، إلى مجرد انتماء بالاسم أو بالتقية.

لا انفصام بين القوة ومرافقتها وبين الأيديولوجيا، لأن بعض الأفكار والمعتقدات تكتسب نفوذاً وقوة لمجرد ذبوعها وانتشارها وربما لقوة من يؤمنون بها. على معنى أن بعض المعتقدات تمنح من يؤمنون بها القوة والسلطة. وبعض ذوي النفوذ والسلطة يمنحون ما يؤمنون به من معتقدات سلطة ونفوذاً. ومن يملكون القوة والنفوذ هم بحكم العادة الأقدر على تكريس معتقداتهم، ونشرها والدفاع عنها، وإضفاء الشرعية والعقلانية عليها، وإقناع الآخرين بها، والأقرب على تشويه ما لا يؤمنون به من معتقدات، وما لا ينتمون إليه من توجهات أو لحزاب، ولسلحتهم في ذلك شتى، ومن أكثرها نجاعة وتأثيراً اللغة. وباللغة يستطيع المفهوميون أن يقاوموا القهر والمهمشون أن يقتربوا من المتن، ولو بمجرد الخروج عن قصمت. وسوف نعود إلى قنوت ترسيخ المعتقدات والأفكار وترويجها وإضفاء الشرعية والعقلانية عليها أو مقاومة كل ذلك لاحقاً.

لا حصر لموضوعات التحليل النقدي للخطاب أو مجالته. فطالما كانت هناك قوة أو سلطة (تعرضها أو تكرسها أو تقاومها)، أو أيديولوجيا (فكرة، أو عقيدة، أو ميل، أو نوق، أو موقف، أو توجه، أو انتماء، أو هوى)، كان التحليل النقدي للخطاب صالحاً للتطبيق، وطالما كانت هناك لغة أو خطاب (حوار، أو مناجاة، أو قصة، أو قصيدة، أو مسرحية، أو تقرير إخباري، أو خطاب سياسي، أو إعلان تجاري، أو أغنية، إلى ما لا نهاية)، فهناك قوة وليديولوجيا أو عقيدة. غير أن بعض الموضوعات والمجالات حظيت باهتمام خاص من ممارسي التحليل النقدي للخطاب، وهي الصراع والتوتر بين الجنسين gender encounters، والخطاب الإعلامي media discourse، والخطاب السياسي political discourse، وخطاب العنصرية racism (ومناهضتها أو إنكارها)، ولغة البرلمانات parliamentary discourse.

نما أدوات التحليل

التفدي للخطب فلا

تختلف كثيرا عن

أوت تحليل الخطب

التفدي ومسائل

الاتجاهات الوظيفية.

لأن ما يميز التحليل

التفدي للخطب من

غيره من طرق

التحليل ليس ما

يستخدم من أدوات،

ولا حتى ما يقارب

من موضوعات أو

مجالات، بل الزاوية

التي يتناول من

خلالها تلك الأدوات

والموضوعات.

نقرأ مثلا (والأمثلة

من العراق بعد

احتلالها وبعد سقوط

صدام حسين على يد

الولايات المتحدة

وحققها في العقد

الأول من الألفية

الميلادية الثالثة):

في نقد التحليل التفدي للخطب

هناك الكثير مما يأخذ نقد التحليل التفدي للخطب عنه، من منطلق اختلافات لاسية بين مدارس التفوية المختلفة - السلوكية والتوليدية وغيرهما - أو تفسيرا على بعض الممارسات غير الناضجة في هذا الاتجاه، مما يؤخذ على بعض ممارسات التحليل التفدي للخطب الاحترافي الجوانب اللغوية من الخطب على حساب ما يحيط به من سياقات ثقافية، واجتماعية، وسياسية. يؤخذ على تلك الممارسات كذلك إهمالها الأبعاد التاريخية، وتغير اللغة، ودلالاتها، ووظائفها من عصر إلى عصر. في كتابات فراسخين من أصحاب هذا الاتجاه، من أمثال فنان ديك وبول تشيلتون وغيركليف وروث وودك Wodak، ما يحض هذه الاتهامات، وفيها ما يحض الاتهام بأن التحليل التفدي للخطب ينطلق من تحيزات ايديولوجية، ويصد في ما يشبه تلك التحيزات، على معنى أنه يبدأ بفروض وتقدّر جاهزة، ولا يرى في النصوص إلا ما يشبه تلك الأفكار والفروض. عدد لا بأس به من دراسات تحليل الخطب التي لم تبلغ مرحلة النضج هنا وهناك يقع في مثل هذه المزالق. لكن تحليل الخطب لا ينبغي أن يحكم على أساس هذه الدراسات. ولعلنا نضيف إلى ما سبق، عند تطبيق التحليل التفدي للخطب في بيئة عربية، مزالق اليقين غير المبرر، والجزم، وتراكم الدراسات والمراجع دون رابط، أو تفسير، أو تبرير، أو تفنيد، تحت عنوان "دراسات سابقة"، والتكرار، والتسليم بالنظريات والمقولات الكبرى دون مراجعة، ودون وعي بالفرق الجوهرية بين السياقات الاجتماعية والثقافية التي تطورت فيها تلك النظريات، والسياقات الجديدة التي تتشكل إليها، و"التطبيق" على حساب التفسير، ناهيك عن التفسير، والبحث عن مصطلحات عربية أو نحتملها فأنزله الأمر. إضافة إلى كل ذلك، لا ننسى التعتيم، وتجنب الموضوعات التي من شأنها أن تستفز الرقابة، والرقباء - وما كثرها. من الدراسات والمراجع في نقد التحليل التفدي للخطب، على سبيل التمثيل لا الحصر: وينوسون Widdowson (١٩٩٥، ٢٠٠٤) وهامرسلي Hammersley (١٩٩٧) وبلومايرت Blommaert وبولكاين Bulcaen (٢٠٠٠)

"عشرات العراقيين قُتلوا لأمس"، أو "قُتل عشرات العراقيين بالأمس"، أو "لقي عشرات العراقيين مصرعهم أمس"، يهتم النحو التقليدي (نحو الكلمة والصيغة والجملة) وراء هذه الجملة بصيغ الجمع - جمع التفسير وجمع المنكر المطلق - والاعراب - "ين"، لا "ون"، لأن "عراقيين" مضاف إليه - والفعل حين يُبنى للمجهول، والضمير المستتر، وما هي ذلك. وربما يتناول تحليل الخطاب، إضافة إلى ذلك أو تكميلاً على ذلك، السياق الذي حدث فيه ما حدث، والمشاركين، والصفة الإخبارية أو التقريرية، والسمك والحبك - "هم" المتصلة تعود على "العراقيين" - والاشارة إلى "أمس" خبر، لا لأمسنا نحن اليوم، ومقدار ما تشتمل عليه الجملة من صدى، وما تطيح من معلومات، ربما لا تكون شافية أو وافية، وغير ذلك. لذا التحليل النقدي للخطاب فيضيف إلى كل ذلك الكلام عن صراع القوى في العراق، وحول العراق، وبسبب العراق، و"الخطبة" الإعلامية التي تتجاهل الفاعل ولا تلقي بالحلقة على أحد، وربما تحوّل الفعل، فعل القتل العمد، إلى مجرد حدث - "لقي ... مصرعهم".

هذا على سبيل التبسيط، لكن لغة تبسيط مفيد، بقدر من التسلح ومزيد من التبسيط نستطيع أن نرى في هذه الأمثلة استعادة لما ورد من قبل من تصنيف لومتن مكونات فعل اللغة إلى صيغة لغوية، ومعنى مقصود، وتأثير مرغوب.

وبقدر من التسلح والتصرف نستطيع أن نتخذ من هذا التبسيط مدخلاً إلى بعد التحليل النقدي للخطاب الثلاثة التي حنّدها فيركلف (١٩٩٥، ص ٢) وهي:

§ الخطاب بوصفه لغة - مكتوبة، أو منطوقة: حروف، وأصوات، ومفردات، وعبارات، وجمل، وتركيب، وقواعد نحوية.

§ الخطاب بوصفه ممارسة بلاغية - ظروف إنتاج الخطاب، وظروف تلقيه، وسياقه، وغايته البلاغية، وطرائق تنظيمه وتدوله.

§ الخطاب بوصفه فعلاً اجتماعياً - علاقة الخطاب بما يحيط به من قوى فاعلة، وبيدولوجيات مؤثرة، وتأثيرها فيه وتأثيره فيها.

في القتل بين هذه المستويات يستعين التحليل النقدي للخطاب بنفس الأنواع والآليات التي يستعين بها تحليل الخطاب التقليدي، وغيره من الاتجاهات الوظيفية. مع تكيده على استكشاف تجليات القوة والمسلطة والأيدولوجيا في قصص - تحريرية وصفية.

من الأنواع التي يستخدمها التحليل النقدي للخطاب والجواب التي يركز عليها:

§ القضي / transitivity :

من الفاعل؟ ومن يقع عليه فعل الفاعل؟ من الجاني؟ ومن الضحية؟ وهل يختلص أي من هؤلاء جراء خوف الكاتب أو المتكلم، أو تحيزه؟

§ درجات اليقين certainty :

اليقين قرين المسلطة، وقرين المطلق، وربما يكون قرين الجهل، وضيق الأفق، أو غلبة الهوى على العقل، والشك doubt - الشك أول العلم، والطريق إلى اليقين، وهو قرين التواضع، أو للضعف والقمع، وربما يكون قرين الحكمة والنضج الفكري، والإلزام obligation - من الذي يقول "ينبغي"، "يجب"، "لا بد"، و"مطلوب"، و"من الضرورة"، و"عليكم أن تفعلوا كذا وكذا"؟ وهل من صلاحية أن يقول ما يقول؟ وغير ذلك من كليات modalities.

§ الإثبات والسلب Affirmative-Negative :

"الجو صحو"، "لننظر الجو صحو"، "ليس الجو صحو" وتساؤل Interrogative: "هل الباب مفتوح؟"، "ليكون الباب مفتوحاً؟"، "ليس الباب مفتوحاً؟" والأمر والنهي Imperative: "فتح الباب"، "ينبغي أن تفتح الباب"، "لا تفتح الباب" (فيركلنف، ٢٠٠٣، ص ١٦٧-١٦٨، بتصرف).

§ اختيار المفردات lexicalization :

من مفردات درجة أو فصحي، بسيطة أو معقدة، إيجابية أو سلبية. وما بين المفردات من ترادف أو تعارض، وما فيها من تكرار وإسهاب أو إيجاز.

§ الصيغ الاسمية nominalizations والمصدرية :

"مقتل المئات في... لسر"، بدلا من "لقي مئات من مصرعهم على يد في لسر". فرسالة واضحة. وما لكثير ما نقرأ من أسماء وصيغ مصدرية توحى بالتحقق في الحديث عن أشياء لا تتحقق، أو لم تتحقق بعد - "زراعة ألف فدان..."، و"زيادة المرتبات والأجور"، و"تحرير العراق"، و"قلمة الدولة الفلسطينية"، و"حل مشكلة الشرق الأوسط".

§ الألقاب والصفات labels, adjectives and epithets :

"هجوم فتحاري"، أم "هجوم استشهادي"؟ "المجاهدون" أم "الإرهابيون"؟ "مسلمون" أم "المحمديون"؟ الاختيار ليس عفوياً، ولا بريئاً من الهوى أو التحيز.

§ الاستعارة metaphor :

استعارة "العصا والجزرة" في معرض وصف علاقة الإدارة الأمريكية ببقية نول العالم مجرد مثل لما يفعل الخطاب، والتشبيه simile، والتشخيص personification، ومجاز المرسل metonymy، والمفارقة والسخرية irony، والمبالغة hyperbole.

§ الافتراض المسبق presupposition، والتضمين implicature، والمطوم من اللفظ بالضرورة entailment.

§ الإشارة deixis - إلى الأشخاص، والأزمنة، والامكنة، والوظائف، والأموال، وفتحاحم أو فتتفر، والقرب أو البعد، وصيغ المخاطبة address forms، وفنداء vocative - "يا بني"، "يا بعد عمري" - والانتقلت deictic-shift.

§ التجميل euphemism :

في كلام عما لا يستحب الكلام عنه، من مرض، أو موت، أو وظئف بيولوجية - وفتفيع dysphemism - في تسمية الأشياء القبيحة باسمها، وفي المسبأ، وفتشتم، واللعن، وما إلى ذلك.

§ البناء للمجهول : passivization :

ليست "ضرب عمرو زيدا" كـ "ضرب زيد" أو "ضرب لخدم زيداً"، و"ضرب زيداً" ليست كـ "من يقتلون من أبناؤنا"، وفي "هذا العالم الكبير المتقد بصراعه الدامية، المضطرب بتناقضاته الحادة، المهتد بين الحين والحين بالحروب المنمرة" (من خطاب الرئيس المصري الراحل أنور السادات أمام الكنيست الإسرائيلي، ١٩٧٧) هروب من تسمية الفاعلين والمسئولين عن معاناة العالم إلى أسماء مفعول ثقيد الجرائم ضد مجهول. وهذا ما يلفظه الفعل "حل" بمعنى "وَقَعَ" أو "حدث"، والمبني للمجهول "سُحِلت" في "يوم حلت عليها غارات الغزو العثماني، وسُحِلت من حولها لستار جهول تعوق تقدمها وتمنعها من الوصول إلى عصر النهضة في نفس الوقت الذي بدأ فيه عصر النهضة في أوروبا" (من خطاب الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، بمناسبة الوحدة بين مصر وسوريا، ١٩٥٨).

§ ما ورد من قبل من لفعال اللغة :

من يخبر؟ ومن يلمز؟ ومن ينهى؟ ومن يحكم، ومن يهتد؟ على سبيل التمثيل، وقواعد المبدأ التعاوني، وقواعد الكياسة والتأليب.

بعض ما سبق مما لا ترد له أمثلة سبق الكلام عنه في هذا التبسيط وبعضه سيرد لاحقاً. حتى حروف الجر تستطيع أن تحدث فروقاً جوهرية - هل "الحرب في العراق"، و"الحرب على العراق"، و"الحرب مع العراق" تحمل جميعها نفس الرسالة؟ الإجابة بالنفي على سبيل اليقين لا الظن، لأن الأولى لا تلقى بقلامة على أحد، وثانية تضع العراق موقع الضحية أو المذنب الذي يستحق العقوبة، وثالثة تبرئ المعتدي من الدون، وتضع طرفي الصراع على قدم المساواة. وكلن كلا منهما يتحمل نفس القدر من المسؤولية عن الحرب، ويمتلك نفس القدرات والأسلحة والنفوذ. فلا داعي للتعاطف مع أي منهما.

ومن قوت التحليل النقدي للخطاب التي شاع استخدامها وتنفكت إلى تحليل الخطاب السياسي ما أطلق عليه فلان ديك (٢٠٠٧ ب، ص ١٣٠) مصطلح "المربع الأيديولوجي" Ideological square. أو تجميـل والتشويه، وتهويل وتهوين، ويشير بمهـلـة إلى استخدام كل ما سبق من أدوات في تجميـل كل ما لنا ومن معنا، وتشويه كل ما نكرهنا ومن علينا أو ضنا. لتحقيق ذلك، يصد المتكلم أو يكتب إلى التهويل والتهوين، بمعنى تضخيم حسناته وسينات غيره، وتهوين سيناته وحسنات غيره: في تعزيز صفاته وأفعاله الإيجابية وتكبيدها (إنها): تهويل (كل ما هو) إيجابي (عندي أنا أو عندنا نحن).

ترجمة المربع الأيديولوجي

"وبالرغم من كونها ليست بالمقصفة ولا المركبة، فإن هذه القائمة الموجزة للمستويات والبنى الخطبية توفر لنا انطبعا أوليا حول الحقيقة التي يرتبط من خلالها الخطاب وبناء المختلفة ببعض نواحي الضمنية. لاحظوا أيضا أن الأسطة المطاة تبين نوع الاستقطاب المجموعي الذي نعرفه نحن أيضا من خلال الفصل المنضوي تحته، أي ميل مجموعة الدخـل العام للفضيل استراتيجية تمثيل النفس الإيجابي من جهة، وازدراء مجموعة الخارج أو تمثيل الآخر السلبي من الجهة الأخرى.

وبعض آخر، يؤكد خطاب الضمري، مع بناء المعنوية الدقيقة بالإضافة إلى الصيغ والأفعال، على صفتنا الحسنة وصفاتهم السيئة، ويتجاهل (أو يخفف أو يخفي) صفتنا السيئة وصفاتهم الحسنة. إن المربع الأيديولوجي العلم لا ينطبق على الهيمنة الضمنية فحسب، بل كذلك على استقطاب مجموعة الدخـل-الخارج ضمن الممارسات الاجتماعية والخطاب والفكر" (توين ١، فلان ديك: الخطاب والقوة، ٢٠٠٧، ترجمة سهى مطلوب، غير منشورة، ص ٩٠).

وهذا مثل آخر لترجمات فيها كثير من الجهد والإخلاص، لكن فيها كذلك استسلام لتقصيص الأصلي، وفيها كثير من الفكر الحررفي الذي لا يراعي لغوي البلاغة بين اللغتين العربية والإنجليزية، ولا يحظى الغاية التي من أجلها يجب أن تكون الترجمة وهي التوصل - توصيل فكرة قصص الأصلي في الفرائ في اللغة التي يترجم فيها. ما فـدي يضيـه "المربع الأيديولوجي" عند من لم يقرأ قصص الأصلي ومن ليس له سابق عهد بكتابت فلان ديك؟ ولمـفـ لا تستخدم الترجمة لتعبير عربية فصيلة من قبيل "التجميل والتكبيح"، و"تهويل وتهوين"، و"لمدح والذم"؟

§ تعزيز صفات عدوه أو منافسه (الأخر) وأفعاله السلبية وتكيدھا: تهويل (كل ما هو) سلبي (عندك أنت أو عنده هو أو عندهم هم).

§ التهوين من صفاته وأفعاله السلبية (أنا): تهوين (كل ما هو) سلبي (عندي أنا أو عندنا نحن).

§ التهوين من صفات عدوه أو منافسه وأفعاله الإيجابية (الأخر): تهوين (كل ما هو) إيجابي (عندك أنت أو عنده هو أو عندهم هم).

1

عن لغة الإعلام واستعارات شتى

يعد كثير من الفضل في تطور التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي من بعده، في جورج أورويل Orwell، وما طرح من أفكار. وما نحت من مصطلحات، في مقالاته وروايات منها رواية ١٩٨٤.

من بين هذه المصطلحات يبرز مصطلح doublespeak، وهو كلام ذو وجهين، أو لزائف المضلل، ومن أمثلته تجميل ما هو قبيح، أو ما ينظر الناس من الكلام لصريح عنه لئلا يزعجوا أو يخجلوا خوفاً - "يقضي حلجنة"، "توفاه الله"، و"بعضية"، و"وعدة"، و"معاشرة". أصبح هذا المصطلح مبرراً لعدد كبير من المصطلحات والمفاهيم التي تصف لغة السياسة والإعلام، ومنها مصطلح لغة الإعلام mediaspeak الذي تتلوه فوكس Fox (٢٠٠٠) بالتفصيل، حيث صنف هذه اللغة إلى لغة زائفة مضللة، ولغة تخاطب الحواس sensationspeak، ولغة ترويجية salespeak (إعلانات، وعروض، وهدايا، وتسريعات). وتشمل لغة

الحواس بنورها الكلام عن النجوم والمشاهير celebspeak (خصوصاً مشاهير ونجوم الرياضة، والفن، وحكاياتهم، وأخبارهم، وزيجاتهم، وموضتهم، إلى ما لا نهاية - مع الاعتذار بضيق المكان لنون النضوة) والكلام عن الكفالت الفضائية والغريبة alienspeak (الحياة على الكواكب الأخرى، والمسباحة الفضائية، والاطباق الطقيرة)، ولغة الكراهية hatespeak (وما لكثرتها وما توفرها في المنتديات، والمدونات، ومقالات الصحف، والرسوم الكاريكاتيرية، وفي الرسائل القصيرة على شاشات التلفزيون، وفي البرامج الحوارية التلفزيونية، خصوصاً بعد الحادي عشر من سبتمبر، وكاترينا، وغزو الكويت، واحتلال العراق، ومباريات الاهلي وفلامك، ونظيراتها في الدول العربية الشقيقة).

حمامة وصقر

"على أن مقامكما هناك لن يستغرق إلا ريثماً يبحث مختار له عن سكن خاص. وانظرك معي في قه لا وجه لأن يقيم بيننا بعد الآن، وفي البيت عزاء في جمال زينب. أجل، فيما مضى كنا فرخين لا خوف عليهما من الجوار. ولكن الحمامة نبت ريشها، كما برزت مخالب الصقر. وما أظن أن عشنا واحداً أصبح يصلح لإيوتهما".

(حسن عطف: زينب، ١٩٢٩، ص ١٩ - ٢٠)

الإسلام قضاء وصراط

"الإسلام قضاء ذو حدود: هذه الاستعارة إستراتيجية ليس في الخطاب الديني للإمام السلمي فقط، وإنما في الخطاب الديني الإسلامي على وجه الصوم. وتقوم هذه الاستعارة على معرفتنا بالقضاءات المغلفة، كالفرقة، أو الميزرة، أو قاعة الدرس. أو السينما". الإسلام طريق وصراط مستقيم: "تصدرت مني إليهم إشارة بالنصيحة عن هذا الاعوجاج ومطالبة الرجوع إلى القوم المنهاج". "فأنتم ببعض الكتاب وكفرتم

بعض. واستبدلتم بالرشد غيا، وبالأهدى ضلالا. وقوله تعالى: "ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل" (من كتاب بذل المجهود في مخالفة أنصاري واليهود للإمام السلمي في دراسة حرصي. ٢٠٠٠)

استعارات منها ما ورد في القرآن الكريم

من (لغة اللغة للثعالبي)

"رأس الأمر"، و"رأس المال"، و"وجه النار"، و"عين الماء"، و"حلب شمس"، و"نف جبل"، و"قف الباب"، و"لمن النار"، و"ريق لوزن"، و"يد دهر"، و"جناح طريق"، و"جناح فذل من الرحمة"، و"كبد السماء"، و"ساق الشجرة"، و"نفقت عصاهم"، و"نفقت نعمتهم"، و"مرؤا بين سمع الأرض وبصرها"، و"فما بينهم القربان"، و"كشفت الحرب عن سفلها"، و"أبدى الشر عن نجنية"، و"حمي فوطيس"، و"دلت رحي لحرب"، و"فتر الصبح عن نواجذ"، و"مل سف الصبح من غد الظلام"، و"نمر صبح في فقا الليل"، و"ياح الصباح بسرة"، و"ارتفع قنهر"، و"ترحت شمس"، و"رمت الشمس بجمرات للظهير"، و"خلفت رايت الظلام"، و"سلب رأس الليل"، و"سبت الشمس جنبابها"، و"قام خطيب الرعد"، و"خفق قلب الهرق"، و"نقطع شرين الضم"، و"تنفس الربيع"، و"تعطر النسيم"، و"تبرجت الأرض"، و"قوي سلطان الحر"، و"احمر فاع الصيف"، و"جاشت جيوش الخريف"، و"سابت مغرق جبل"، و"اشتعل قراس شيبا"، و"يوم عيوس"، و"الآب غذاء الروح"، و"قشيب بكورة الحياة"، و"قشيب عنوان الموت"، و"العيال موسم المال"، و"النز فكهة الشتاء"، و"لوحة قبر حي"، و"الصبر مفتاح الفرج"، و"الشمس قطيفة المسكين"، و"لبس الجوع والخوف"، و"موط عذب"، و"لم الكتاب"، و"لم القرى" (لثعالبي. ٢٥٦- ٢٥٧).

استثمارات (سياسية واقتصادية ورياضية... إلخ) معاصرة

من الأهرام، والمصريون، والمصري اليوم، والخليج،
والإمارات اليوم، والرياض (٢ يوليو ٢٠٠٨) وغيرها

(١)

بول "مرفقة"، وبول "شقيقة"، وبول "صديقة"، وبول "معتبة" (المجتمع الدولي أسرة)،
و"محور" قمر، والحرب "على" الإرهاب، و"كش فداء"، و"بطنة سوداء"، وحصان
"سود"، ورغبة "متوحشة"، و"الراعي" والنساء، و"غرام" الأقاعي، (البشر حيوانات
عظيمة)، و"الحيتان" الكبيرة، و"الأسماك" الصغيرة، والعزاء و"فقر" و"الخطبوط"
الفصل، وحكومة "الظل"، ولصوت "محروقة"، و"شراء" الأصوات، و"شاهيندر تجار"
مصر، و"القيصر"، و"تفريغ" قنوت حماية للمنظمة (لقتون وعاء)، و"لغة شد الحبل"
بين طهران ووشنطن، و"اللعب" بالنار، و"اللعب" على العقول، و"لغة" فكريسي
الموسيقية، و"لغة" السياسة، و"الدعارة" السياسية، و"العهر السياسي" (السياسة لعبة
قذرة)، و"غسيل" المخ، و"هجرة" العقول، و"استنزاف" خزانة الدولة، ومواطنون "ضد
غلاء"، و"جحيم" الأسعار، و"تدني" الرواتب، والأسعار "تلتهم" فريضة في فروتب،
و"خرق" الفوائد، و"اختراق" الصفوف، و"سلحة" "فخداغ" فشل، و"خنق" المبادرات
الشابة، ويشدد "الخنق" على غزة، و"فجوة" مخصصات الديون، ودون تحميل
الموتنة لية "أعضاء"، و"حسني عبد ربه" من "حق" الإسماعيلي (البشر ممتلكات)،
ودفع "عجلة" التنمية، ودفع "مسيورة" السلام، والصين قوة "صاعدة"، و"قتل" نريع
لامرقل، و"تجأح" لحزب الله، و"مراكلة" إستراتيجية، و"فصل" بين شركتين، و"شد
وجنب" بين الشركاء، و"تمونامي" الشائعات، و"عيد جلاء" للمدرسين الخصوصيين
عن بيته، و"موجة" من اللاجئين، و"غلين" في شوارع العاصمة، و"التمركيون" "سط"
شعب المعلم، وزيمبابوي الأكثر "تعاسة"، و"حققت" وزريرة جديدة، و"بنك"

المعطومات، و"صدام" الحضارات، وثقافة الاحتلال لم "تستجّر" بعد. و"يحيى" الأمل في الوصول إلى حل، و"بزوغ" فجر العسكرية المصرية، وافتحان الأسبان الجند (فريق كرة القدم) لفاز ببطولة أمم أوروبا (٢٠٠٨).

(٢)

"مركة" الهبوط، و"شبح" الحرب والانتفاضة (الامة جمد)، و"هبة" الدولة، ورب الصدع، و"نبوة" رؤية إفريقيا، و"نفوا قيده" (لاعب يريد ترك لعبه)، و"كبل" الاحتلال، و"تشين" / إطلاق مشروع، و"شمن" الحرية، و"قهود" الاستمرار، والحقيقة "العنصرية"، و"شجرة" / "نهر" الحرمان، وبيت من "لحم"، والصحة "تفحص" الصلاة في بلادها، و"ترسيخ" العمل العربي المشترك، والحضارة "فقط" الذي "يناهض" الهمجية، و"غل" المجتمع و"فقتة" (المشكلات الاجتماعية أمراض)، وكلام "حلو"، وكلام "نذير"، وكلام "مصول"، وكلام "جارج" (الكلام طعم وشرب وسلاح)، ومنفعة "لامعة"، و"تجم" متلقى، و"كوكب" الشرق، و"يحيى" مؤامرة، و"ينسج" قصة من الخيال، و"حرب" كلامية (جدل والمحاكمة حرب)، و"أعداء" الحكمة، و"نمن" البلاغة، و"جنور" الاستبداد، والقضاء على الفتنة في "مهدا"، و"ملاح" زمة فضاء (فضواهر الاجتماعية والفكرية أبنية ونباتات وكائنات)، والوطن / اللغة "الأم"، و"حضر" الوطن (الوطن لم)، والأصدقاء "المقرّبون"، والقراء الزوار لكرم، ومحرر "الضيقة" (المواقع والمنشورات ببوت)، وليام "سوداء" لو "بيضاء"، ومستقبل "مظلم" لو "مشرق"، ويدير "نفا" الأمور، و"ربان" سفينتا (الحياة سفينة)، و"رحلة" لنسيان، و"رحلة" الحب، والحياة "رحلة" (الحياة رحلة)، وفي "ظلال" القرن / السنة، و"ظلام" الجهل، و"تور" المعرفة، ويوم "حلو" ويوم "مر"، و"لنمنا" الحنوة، و"بجرة" سريعة / قصيرة، والزمن "يجري"، والأيام "تمر"، و"لوحة فنية" رقعة (مجموعة من البشر يصلون معا)، والعيون "نوافذ" الروح، و"كلام" للعيون. وله نيك "بيضاء" على تلاميذه.

ويمد "بذ" العون، والأم "مدرسة"، و"سيمفونية" رائعة (عن أداء جماعي)، و"عزف" منفرد (عن مهمة فردية)، و"فيروسات" و"قراصنة" (في عالم الكمبيوتر والإنترنت)، والصفحة الرئيسية (في أصلها الغربي homepage)، و"تكلل" الطبقة الوسطى، و"تلز" الغيرة، و"بركلن" الغضب (المشاعر نيرن)، و"بحر" الحياة موجه عال، و"بر" الامن (الحياة بحر)، و"الزواج" بين الولايات المتحدة وبيزن وبين الولايات المتحدة ودول أخرى (العلاقات بين الدول كالعلاقة بين زوج زوجة، الدول بشر).

تحليل الخطاب السياسي

إن السياسة بمعنى التأثير والتوجيه والتنويه والخداع والتفويض مثلة في كل زمن ومكان، من هنا يأتي تأكيد التحليل النقدي للخطاب على تناول علاقات القوة والهيمنة، وتحليلات الأيديولوجيا في كل أنواع النصوص - في خطاب الآباء والابناء، والقضاة والمتهمين، والأطباء والمرضى، والمدرسين والطلاب أو التلاميذ، ورجل الشرطة والمواطن "العادي"، والعالم والمتعلم، والشيخ والمريد، والممتحن والممتحن، والقاضي الرعية، وأرباب الأعمال ومديرها بموظفيهم، من يملكون ومن لا يملكون، من يطمون ومن لا يطمون - إذا كانوا يطمون أنهم لا يطمون.

وليس من بين أنواع الخطاب ما تتجلى فيه الهيمنة والقوة ومحاولات التأثير أكثر من الخطاب السياسي بمعنىا للخاص المحدث الذي يتعلق بأمور الحكم والسياسة، ولهذا السبب يستقر الخطاب السياسي دون غيره من مجالات التحليل النقدي للخطاب، وما زال يستقر، باهتمام متزايد حتى تطوّر في دراسته اتجاه مهم هو تحليل الخطاب السياسي **Political Discourse Analysis**، الذي ينطلق من مقولات ومفاهيم التحليل النقدي للخطاب، ومن ثم ما تأسس عليه من اتجاهات ومفاهيم، ويركز على لغة السياسة والسياسة، في خطبهم وحواراتهم ومكتباتهم وقراراتهم ومؤتمراتهم وتصريحاتهم، وعلى وظائف الخطاب السياسي، وغايته، ودواته في تحقيق هذه الغايات.

في أبحاث تحليل الخطاب السياسي، التي تتراكم وتزداد تضجاً وتعقيداً يوماً بعد يوم - وتحديداً في دراسة تشيلتون وشيفر (١٩٩٧) المهمة عن الخطاب والسياسة - ربيع وظائف يسعى الخطاب السياسي إلى تحقيقها - ليست مقصورة عليه، لكنها تتجلى فيه بشكل لافت، وهي:

(أ) القمع والقهر coercion - من خلال فرض القوانين والأحكام والعقوبات والتنظيمات. وشن الحروب، والتهديد، وفرض الأوامر والتنظيمات وما إليها.

(ب) إضفاء الشرعية أو تجرييد الآخرين - الأعداء، والخصوم، والمنافسين. ومن إليهم - منها legitimization/ delegitimation - من خلال تجميل الذات وتضيق الآخر. كما يرد تلمصيله في غير هذا الموضع. ومن خلال ادعاء الانحياز إلى جانب الحق والخير والعدل في مواجهة من ينتحرون في الباطل والشر والظلم.

(ج) المقاومة والمواجهة resistance and opposition - راء الخطاب السائد المهيمن، خصوصاً إذا كان خطاباً شمولياً لا يراعي إمكانية البشر ولا يعمل بينهم. وفي محاولات للتغيير إلى ما هو أفضل. علينا أن نلاحظ هنا أن ما هو هامشي في لحظة تاريخية محدّدة ربما يحتل المتن في مرحلة لاحقة. وقد يمارس كل الفرد قبل التي كان ينتقدها في سابقه.

(د) التضليل dissimulation - من خلال إخفاء بعض التفاصيل أو الحقائق لحساب تفاصيل وحقائق أخرى، أو التركيز على بعض جوانب الواقع دون غيرها تحقيقاً لما سبق من غايات.

يستطيع الخطاب السياسي أن يحقق هذه الغايات من خلال الكفة. ومن أبلت ذلك على سهل التمثيل لا الحصر - وقد تلقم تلخيص هذه الأبلت في الحديث عن التحليل النقدي للخطاب:

(أ) الاستعارة :

من ذلك ما نجد في تعبير الإدارة الأمريكية "hunting down bin Laden" الذي يتحول فيه اسمة بن لادن إلى "حيوان" يطارده صيغو الهنتاجون. وقد وردت أمثلة أخرى للاستعارة في متن التلميط وهوامشه.

(ب) التشبيه :

تشبيه صام حسين بهتلر، والقاعدة بالمافيا، على سبيل المثال. لا يبدو أن التشبيه نفس التأثيرات السياسية والبلاغية التي للاستعارة، ربما لأن أداة تشبيه تلتفت للنظر وتستقر التساؤل عن حقيقة العلاقة بين طرفي التشبيه.

(ج) الافتراض المسبق :

من ذلك سؤال بوش في خطابه عقب الحادي عشر من سبتمبر المشهور **Why do they hate us?** (لماذا يكرهوننا؟) وولو الجماعة تشير إلى المسلمين والعرب و"ما" إلى الأمريكان) الذي يفترض مسبقاً صحة الاعتقاد بأن العرب والمسلمين يكرهون الولايات المتحدة، وقوله **The enemy of America is not our many Muslim friends** الذي يفترض مسبقاً وجود عدو يترقب بل أمريكا وأن أمريكا لها كثير من الأصدقاء في العالم الإسلامي.

(د) التجميل :

من ذلك التعبير عن الاحتلال بالتحدير، وعن الحرب "على" العراق بالحرب "في" العراق، وعن الأخطاء الغيبة بالنيران الصديقة، ومن ذلك أيضاً ما امتعاض به "الصخاف" وزير الإعلام العراقي في عهد "صدام حسين من خبره مسارة عن "الانتصارات" العراقية المتعاقبة في "معركة الحواسن" الأخيرة التي ذهب بعدها صدام والصخاف إلى غير رجعة، ومن ذلك التعبير عن الهزيمة بالنكسة، والانسحاب بالترجيع، والقتلى والضحايا بالخسائر في الأرواح.

(هـ) التقييح :

من ذلك سبيل الشتائم التي سمعنا من "الصخاف" حين وصف القزاة الأنجلوأمريكيين بـ "فطوح" ومصلحي النماء و"جحوش الاستعمار" و"عصابة الأوغاد الدولية". (بالإضافة إلى التنقل بين المبني للمطوم والمبني للمجهول وتحويل الفعل إلى مجرد أشياء تقع أو تحدث دون قصد أو دافعية إنسانية).

هكذا. ومن خلال متابعة لغة الحرب على العراق، نستطيع أن نتحقق من توظيف اللغة كسلاح مهم وفعل في تبرير الحرب أو مقاومتها من خلال تجميل الذات وتشويه الآخر. فقد عملت الإدارة الأمريكية على تشويه صورة صدام حسين الذي قدم لها كل المساعدات الضرورية من خلال تصرفاته "الطقشة". من وجهة نظر تلك الإدارة، وعينه بمفكرات شعبه، وقمعه إياه. في نفس الوقت، سعت الإدارة الأمريكية إلى تجميل صورتها، وتهميش كل أخطائها وخطاياها، ولخفاء دوافعها الحقيقية من وراء الحرب - صدام ليس الطاغية الوحيد، وهو ليس كذلك في نظر الجميع. ولم يكن في العراق سلطة تملأ شامل، كما أن صدام - من وجهة نظر كثيرين - كاهن لأن صناعة أمريكية. على الجانب الآخر، أبقى حزب البعث على خطبه الذي يفزل مشاعر المسلمين والعرب من خلال التلطي باستر الكعبة، وبقياء قومية العربية، وحديث الجهاد في سبيل الله، والعرض والشرف والكرامة. في نفس الوقت، بذل الصخف جهدا خارقا في تشويه الغزاة المستعصرين. لكن لغة الحرب العراقية المنهكة أخفقت، وأخفقت كذلك لغة حربها اللغوية. ولعل من أكثر نتائج تلك الحرب أهمية أن العالم قد أصبح أكثر وعيا بتوظيف اللغة كسلاح خداع شامل. لم يكن الأمر من قبيل الاكتشاف، لأن توظيف اللغة كالة للدعاية والحرب قديم قدم الإنسان نفسه، لكن المسألة لم تعد تحتل مزيدا من الانتظار للاهتمام بهذه الوظيفة على مستوى تناول الاعلامي والبحث الأكاديمي.

كذلك نستطيع أن نتحقق من خلال مراجعة لغة الحرب على الإرهاب ثم على العراق من توظيف وسائل الدعاية propaganda اللغوية لتحقيق غايات سياسية ورد نكرها أعلاه. من ذلك ما حفل به خطاب الحريين من ألفاظ رنانة، وتعابير برفقة glittering generalities كالديموقراطية، والحرية، والعدالة، في صراعها مع الإرهاب، والديكتاتورية، والظلم، والخوف. حين ننق النظر، نكتشف أن هذه الكلمات ليست لها نفس الدلالات عند المتحاربين، فما قمه صدام وابن لأن "جهاد في سبيل الله" تحوّل عند بوش إلى "إرهاب"، وما يقفه بوش "حرب على الإرهاب" تتحوّل عند مسكر "الأعداء" إلى "إمبريالية"، و"غزو"، و"استعمار".

ومن ذلك خلط الأوراق card-stacking في سبيل التعصم على الدوافع الحقيقية، فبدلاً من مناقشة الأسباب الحقيقية "لكراهية العرب" أمريكا، رأينا الإدارة الأمريكية تتمسك بذلك في ما تتمتع به الولايات المتحدة من حرية، وحضارة، وعدالة، وما ينقل كاهل العرب من قمع، وقهر، ومحاكم تفتيش، ولحكam عرفية، وطغيان، لم نسمع بوش يتناول تحيزات دارته، ومكاييلها المتبائنة، ولقمتها المتعددة.

ومن أساليب الدعاية السياسية كذلك الحديث بلسان حال فعلة plain folks، والابهام بأن موقف القيادة ليس إلا تعبيراً عن مشاعر الشعب ورغباته. ومن ذلك أيضاً التخصيم وفترض التعبير عن الأغلبية، ليس في الدخول فقط، بل في شتى أنحاء العالم، ويرتبط بهذه الوسيلة الدعائية التيقن من النصر band-wagon and inevitable victory - "لنا أعبر عن شعبي، والعالم المتحضر كله معي، وسوف نتنصر؛ إما أن تكون معنا أو علينا، وإذا قررت ألا تكون معنا، فسوف تكون حتماً من الخاسرين". هكذا تكلم جورج بوش الابن.

ومن وسائل الدعاية التي تابعتها في الحربيين كذلك التبايز بالانقلاب، والمسب، أو لشم name calling، وقد وردت فيما سبق أمثلة لذلك في معرض الحديث عن لغة "صحف"، لم يقصر جورج بوش من ناحيته، فقد أقام على صدمته وبين لائن بسبل من الانقلاب التي تحمل العلامة على كراهتهما. ولقد أصبح لقب "رهابيون" تهمة جاهزة لكل من تمسك له نفسه معاداة الأقوياء، الفللمسلمين "رهابيون"، والعراقيون الذين يقاومون الاحتلال "رهابيون"، و"محور الشر axis of evil محور الرهاب، وطلقاً وردت كلمة "الشر"، فقد انتقل الصراع من تنافس على هيمنة ومسمى إلى تحقيق غايات سياسية واقتصادية، إلى صراع بين "الخير" و "الشر". ونحن جميعاً نعرف في أي مصرع نتحاز السماء. هكذا أصبح الدين وسيلة دعائية، وقلة حرب، لم يكن بوش راقداً في توظيف الدين لتحقيق غايات سياسية فقد سبقه في ذلك عدد لا بأس به من القادة العرب، وسوف ترد إشارات أخرى في ذلك لاحقاً.

لم تنته الفصّة بعد، لكنّ المؤكّد أنّ لغة الخطّاب السياسيّ تحتاج إلى كثير من الاهتمام في علمنا العربيّ. بوسع البلاغة العربيّة أن تمّتدّ ما يستجدّ من مفاهيم تنطق بوظائف الخطّاب السياسيّ والدعاية السياسيّة.

ليس المقصود الإحياز لأنّ أيّاً من الأطراف المضيفة في الحروب التي نتحدث عنها لم يقدم للبشريّة ما يستحقّ أن تحمده له أو أن تدافع به عنه (وهذه في ذاتها مقولة منقوطة). لكن المقصود هو الوعي والتوعية.

1

خصائص الخطّاب المياسي

تحسين القبيح وتقييح الحسن

من طريف ما تحفل به بلاغة العربيّة ما كتبه أبو منصور الثعلبيّ - وهو صاحب تبيينة الدرر وفقه اللغة كذلك - في كتابه تحسين القبيح وتقييح الحسن. وقد جمع فيه ما قيل في تحسين ما تمّ التعرّف على تقييحه، وتقييح ما اتفق الناس على تحسينه. ينكر الثعلبيّ في المقايح تقييح العظم، والشجاعة، والأثب، والقسى، والحلم، والصبر، وغيره. وينكر خصوصاً في تحسين الكذب، والفولحة، والفنوب، والمرض، والموت، والجن، والمجن. على أنّ لا ينبغي أن نفع في فقه البلاغة. فهو لا يمدح الكذب إطلاقاً، بل يمدح من الكذب ما يوصل به فرح ويتصلح للمتفرّجون. وهو لا يذمّ العظم في ذاته، بل يذمّ منه ما يورد صاحبه موارد الفزق ويلبسه لباس الفزور. يقول الثعلبيّ في تحسين الفرق وتقييح التلاقي: "قلّ بعض الظرفاء: في الفرق مصافحة فتسليم، ورجاء الأوبة، والسلامة من الملل، وعسرة القلب بالثوق. والآس بالمكثبة! وكتب أبو عبد الله الزنجيّ الكتّاب: جزى الله الفرق عنا خيراً! فجاء هو زفرة وعبرة، ثمّ اعتصم وتوكل. ثمّ تامل وتوقع.. فحجّ الله التلاقي! فجاء هو ممرة لحظة. ومساء ليام، وابتهاج ساعة، وكتّاب زمان (من موقع لورق).

في ختام تحليله
نصوصاً سياسيّة مهمّة
لجورج بوش وأسماء
بن لادن ومنافسته
ترويج العلاقة بين الكفة
والمهامة وغير ذلك
من جوانب الخطّاب
السياسي.

يلخص بول تشيلتون
Chilton (٢٠٠٤):
٢٠١-٢٠٥ سمات هذا
نوع من الخطّاب فيما
يلي - مع كثير من
تصرّف على مسيل
تبيسط:

(١) يعتمد الخطاب السياسي

على الإشارة - deixis -

بمضاهيها التوسع الذي سبق

توضيحه - إلى الزمان

والمكان والمكثنة والعلاقة

والسبق.

(٢) يقوم الخطاب السياسي

على التفاعل

Interaction الذي تتبدى

من خلاله الحدود التي تفصل

وتربط التي تجمع، تفصل

الما عن الآخر وتجمعها

ومن يحلقها أو يشبهها أو

ينتمي إليها، وتتبدى من

خلاله كذلك المكثنة السياسية

والاجتماعية والاقتصادية

والأنوار التي يلعبها كل

طرف في التفاعل أو حوله.

(٣) يشتمل التفاعل على

نوع من التفويض والتداول،

تداول الواقع، ومراجعة

فرضياته المهمة، ومحاولة

فرض ما نفترض أو نسلم به

نحن على الآخرين.

إضفاء الشرعية وتجريد الآخرين منها

(فان ليوين van Leeuwen, ٢٠٠٧: ٩٢، بنصره)

في "المربع الأيديولوجي" وفي وظائف الخطاب

السياسي تأكيد على ما يقوم به كل خطاب

أيديولوجي من إضفاء الشرعية على نفسه وتجريد

الآخرين - الخصوم والأعداء والمنظفين والحسد

وفنقاد - منها، ويستطيع منتج الخطاب أن يحقق

هذه الغاية - التي لا يخلو منها أو من بعض

درجاتها أو ظلالها خطاب امتقي - من خلال:

§ إضفاء السلطة Authorization - من خلال

استلزام الموروث والتقليد والصدات وقوانين

والاستشهاد بأصحاب النفوذ وتقدير التفكي أو

الفكري أو السياسي، كرجل الدين والرموز

التاريخية.

§ إصدار الأحكام الأخلاقية Moral evaluation:

إصدار أحكام أخلاقية عن الخير والشر والفضيلة

والزينة والقيم والصواب والخطأ والحلال والحرام

والعلم والجهل وغير ذلك من ثقيبات.

§ العقلنة Rationalization: إضفاء الطائفة

على مقولة أو قضية أو موقف أو اتجاه، من خلال

الأرقام والاحصائيات والتسلسل المنطقي والاستشهاد

بالمختصين ونوي الخبرة والعلم والمعرفة.

§ الأسطورة وقصود Mythopoesis: حكايات

وقصص - حقيقية أو مؤلفة - مفلاها أن كل ما هو

شرعي يحظى بانهيات سعيدة وكل ما هو خارج

عن الشرعية ينتهي نهايته لطبيعية - "كس مسلة

مهملات لتاريخ" بتعبير جورج بوش في خطبه

عقب الحادي عشر من سبتمبر. لا بد أن ينزوح

"البطل" من "البطلنة" وأن يلقى القبض على المجرم

لشرير.

(٤) يشتمل الخطاب السياسي على توقع ما يفكر فيه الآخرون واقتبازهما بسبب المنصوص وما يؤمن به "الأعداء" ومن ثم تنفيذه أو إضعافه أو تسويبه وتبجيحه.
(٥) يتحقق قدر كبير من التفاعل في الخطاب السياسي بفضل قدرة اللغة على الدلالة على مستويات مختلفة، وقدرتها على التعبير عن الواقع، ثم التعبير عن التعبير عن الواقع.

(٦) يتحقق قدر كبير من التفاعل في الخطاب السياسي بفضل ثراء تعابير الوقوف والفكر وتعابير الضرورة والالتزام الأخلاقي والديني والاجتماعي - تعبير "فعل" و"لا تفعل" و"يجب" و"ينبغي" و"لا بد" و"علينا".

(٧) يركز الخطاب السياسي إجمالاً على تصنيفات ثنائية متعارضة، وربما متصارعة، بين الحق والباطل، بين الخير والشر، بين العدل والظلم، بين الشرعية وعدم الشرعية، بين الوطنية والخيانة، بين الحرية والقمع. عادة ما يكون صلب الخطاب في المعسكر الأول وأعداؤه في "محور الشر".

(٨) لمفهوم الأنوار roles أهمية خاصة في الخطاب السياسي. والمقصود هنا هو ما يؤدي المشاركون في الخطاب من وظائف وأنوار اجتماعية أو سياسية أو عسكرية، سواء كانت هذه الأنوار حقيقة أو مفترضة أو مرجوة أو مطلوبة من الآخرين. والعلاقات التي تربط بين من يؤنون هذه الوظائف ويلعبون هذه الأنوار - "الحكم" و"المحكوم" و"الراعي" و"الرعية" و"الرنين" و"الشعب" و"الحكومة" و"المعارضة" و"الجمهوريون" و"الديمقراطيون" و"العزل" و"الفئات" و"أعضاء مجلس الأمة" و"وزراء" وهكذا.

(٩) لتوعي بالمكان والمكانة أهمية خاصة في الخطاب السياسي. ومن ذلك ما يتنطق بمفهوم "الحدود" و"المياه الإقليمية" و"دول الجوار" و"شرق" و"غرب" و"الاحتلال" و"الفرو" والهجرة و"الشمال" و"الجنوب" وما يرتبط بذلك من استعارات وتصورات وحقوق وواجبات.

(١٠) يشتمل الخطاب السياسي على قدر وفير من التفكير الاستعراضي. على مضي أن للاستعارة وظيفة مهمة في صياغة التصورات وتجسيد المفاهيم والأطروحات السياسية. من ذلك ما نجد في استعارة "اصطياد أسمة بن لادن" في هذا الجزء من التبسيط. لا تكفي الاستعارة هنا بتقريب فقد تنظم القاعدة بل تنقل من ذلك إلى تجريده من الشرعية ووضعه في مصكر الشر الذي تصبح محاربه التزاما أخلاقيا مشروعاً.

(١١) من خلال الوعي بالمكان والتصورات الاستعارية التي ترتبط به، تتشكل الجماعات والقوميات والشعوب والألويات والدول والدويلات، ويتشكل كذلك وعيها بمن ينتمي إليها ومن لا ينتمي، وتتبلور الهوية identity السياسية والجغرافية والاقتصادية لتلك التجمعات، وتتبلور مفاهيم "نحن" و"هم"، من "معا" ومن "عينا". وقد يقع التبسيط المخل والالتباس بين الهوية الجغرافية وبين الهوية السياسية أو الدينية كما نجد في تصور هنتنجتون Huntington صراعاً بين غرب "مسيحي" وشرق "موسم". ليس كل من في الغرب مسيحيين، وليس كل من الشرق الأوسط مسلمين.

(١٢) يبدو أن هناك ارتباطاً من نوع ما بين الخطاب السياسي وبعض المشاعر الإنسانية الغريزية كحب الوطن والغيرة على الدين والحفاظ على الحرمات والمحرّم والأسكن المقدسة والنفور من الغرباء والرغبة في الانتماء وحب "الأهل" والأسرة والانتماء إلى دين أو عشيرة. وكلها مشاعر يجيد الخطاب السياسي تلونها والعزف على أوتارها بما يحقق أغراضه وأهدافه.

(١٣) تكررنا البعض ما سبق وتأسيساً عليه، تتجاوز الإشارة والتعبير الإشارية مجرد تحديد المكان إلى تحديد للمكانة والدور والعلاقة بين المشاركين في الخطاب، من مجرد الإشارة إلى من أنا ومن أنت ومتى، إلى تأسيس علاقة بين "أنا" وكل ما هو حسن وخير - وبين "عدوي" أو "منافسي" وكل ما هو قبيح وشر - وتحقيق لتلاحم بين منتج الخطاب ومن يسعى إلى إرضائهم من نخبيين أو جماهير أو لجان أو هيئات. هكذا تبقى الإشارة بمعناها الرحب سلاحاً مؤثراً في جسد الهويات والانتماءات. ندعاً يدفع وسيطاً يقتل، بدأ تضم "نوي القربى" وأخرى تحجب الغرباء.

في العالم العربي

هناك وعي متزايد في الجامعات العربية بضرورة التحليل النقدي للخطب، وتحليل الخطاب السياسي. نجد هذا في دراسة سهلم الفلاح El-Kareh (١٩٨٥) التي تتناول عينة من خطبات جمال عبد الناصر، ودراسة ملك هاشم Hashem (١٩٩٠) التي تتناول صراع القوى في قصة قصيرة، ودراسة أبو خليل Abu Khalil (١٩٩١) التي تتناول الجبرية في خطبات جمال عبد الناصر وصدام حسين، ودراسة الرشيد Al-Rashid (١٩٩٤) التي تتناول بلاغة الخطاب السياسي في المملكة العربية السعودية في تسعينيات القرن الماضي، ودراستي وجيه Wageih (١٩٩٤، ١٩٩٦) وتتناولان التفاوض الاجتماعي والسياسي، ودراستي علا حفظ Hafez (١٩٩٩، ٢٠٠٠) وتتناول أولاهما العلاقة بين الخطاب والقوة، وثانية الخطاب الجماهيري وما فيه من الثغرات وتبادل أقوال، ودراسة الحراصي (٢٠٠٢) التي تتناول الاستعارة المفهومية وتعرض على التحليل النقدي للخطب، مع تطبيقات على بعض خطب الإمام علي كرم الله وجهه، ودراسة رشا خيري Khairy (٢٠٠٠) التي تتناول النعبة وجوانب نحوية ودلالية وتدولية أخرى في لغة فضيحة ووترجيت، ودراسات مزيد Mazid (١٩٩٩، ٢٠٠٢، ٢٠٠٧، ب. ٢٠٠٨) وتتناول الأولى التحليل النقدي للخطب وتطبيقه في تحليل خطاب السادات أمام الكنيسة الإسرائيلية وإعلان الاستقلال الأمريكي وأجناس خطابية أخرى، وتتناول الثانية كلام الجميل والفحيح في خطاب الحرب على العراق، والثالثة تحليل النقدي لخطب الترجمة، والرابعة الافتراضات المسبقة في خطاب للرئيس بوش في أعقاب الحادي عشر سبتمبر، وتتناول الخامسة صورة بوش وابن لادن في عينة من النصوص الكاريكاتيرية، ودراسة محمد Muhammad (٢٠٠٤) التي تتناول بالتحليل النقدي عينة من عناوين الصحف العربية والإنجليزية، ودراسة ميديا أحمد Ahmed (٢٠٠٧) التي تتناول بالتحليل النقدي لغة الصحف العربية والإنجليزية.

في العالم العربي

هناك وعي متزايد في الجامعات العربية بضرورة التحليل النقدي للخطب، وتحليل الخطاب السياسي. نجد هذا في دراسة سهام الفلاح El-Kareh (١٩٨٥) التي تتناول عينة من خطبات جمال عبد الناصر، ودراسة ملك هاشم Hashem (١٩٩٠) التي تتناول صراع القوى في قصة قصيرة، ودراسة أبو خليل Abu Khalil (١٩٩١) التي تتناول الجبرية في خطبات جمال عبد الناصر وصدام حسين، ودراسة الرشيد Al-Rashid (١٩٩٤) التي تتناول بلاغة الخطاب السياسي في المملكة العربية السعودية في تسعينيات القرن الماضي، ودراستي وجيه Wageih (١٩٩٤، ١٩٩٦) وتناولان التفاوض الاجتماعي والسياسي، ودراستي علا حفظ Hafez (١٩٩٩، ٢٠٠٠) وتتناول أولاهما العلاقة بين الخطاب والقوة، وثانية الخطاب الجماهيري وما فيه من الثغرات وتبادل أقوال، ودراسة الحراصي (٢٠٠٢) التي تتناول الاستعارة المفهومية وتعرض على التحليل النقدي للخطب، مع تطبيقات على بعض خطب الإمام علي كرم الله وجهه، ودراسة رشا خيري Khairy (٢٠٠٠) التي تتناول النعبة وجوانب نحوية ودلالية وتداولية أخرى في لغة فضيحة ووترجيت، ودراسات مزيد Mazid (١٩٩٩، ٢٠٠٢، ٢٠٠٧، ب. ٢٠٠٨) وتتناول الأولى التحليل النقدي للخطب وتطبيقه في تحليل خطاب السادات أمام الكنيسة الإسرائيلية وإعلان الاستقلال الأمريكي وأناس خطابية أخرى، وتتناول ثلثية الكلام الجميل والفصح في خطاب الحرب على العراق، وثلاثة تحليل نقدي لخطب الترجمة، والرابعة الافتراضات المسبقة في خطاب للرئيس بوش في أعقاب الحادي عشر سبتمبر، وتتناول الخامسة صورة بوش وابن لادن في عينة من النصوص الكاريكاتيرية، ودراسة محمد Muhammad (٢٠٠٤) التي تتناول بالتحليل النقدي عينة من عناوين الصحف العربية والإنجليزية، ودراسة ميديا أحمد Ahmed (٢٠٠٧) التي تتناول بالتحليل النقدي لغة الصحف العربية والإنجليزية.

ودراسة أحلام الخطابي Khattabi (٢٠٠٨) التي تتناول التجميل والتقييح والكلام
لزعزعة الفضائل doublespeak في المؤتمرات الصحفية، ودراسة منى سعد
Saad (٢٠٠٨) التي تتناول الاستجابات البرلمانية المصرية من جوبها لنحوية
وإدلاية وما يتطرق بتنظيم خطاب الاستجواب interpellation بجمالاً، ودراسة
برهومة (٢٠٠٨) التي تتناول دور لغة السياسة في تكريس قصور النمطية بين
الغرب والشرق، وصراع القيم الحضارية في زمن التغيرات السياسية، وخطاب
الاستعلاء الأمريكي وموقف الآخرين إزاءه.

هذا إضافة إلى دراسات مهمة تُعرف بالاتجاهات الوظيفية والتداولية كما نجد في
كتاب فضل (١٩٩٢) عن بلاغة الخطاب وعلم النص. أما المقالات الصحفية
والإلكترونية - على ما فيها مما يعوق الفهم، ناهيك عن الاستماع - ففيها ترجمة
بعض أفكار النحو الوظيفي، وأفعال اللغة، والمبدأ التعاوني، والكياسة والتلاعب، لكنها
لم تقرب بعد التحليل النقدي للخطاب، لو تحليل الخطاب السياسي إلا فيما ندر. وتبقى
الدراسات الأكاديمية المثلر إليها محدودة بحدود زرف مكتبتها، وحنود من يقبلون
على مطالعتها باللغة الإنجليزية.

ليس ضعف الاتجاه النقدي والسياسي في الدراسات اللغوية العربية بمستغرب، بالنظر
إلى طبيعة الثقافة العربية التي تؤثر سلامة على قدام و"قصادغ". وبالنظر إلى
مساحة الحرية الأكاديمية المتاحة للباحثين العرب، هذا بالإضافة إلى سوء فهم "نقد"
إجمالاً، بحيث يصبح مراتفا للتغشيش عن العيوب، وإلى ضعف الاتجاه النقدي التحليلي
في المنظومة التنظيمية العربية. هذا إلى ما يسيطر على كثير من "قناتر" الأكاديمية
العربية من قصر "الدراسات اللغوية" على النحو، والقرف، والأصوات، وإدلاية،
وما إليها، على مستوى المفردات، والعبارات، والجمل، لا النصوص، وكلن الذين
يدرسون تحليل الخطاب، والتداولية، والتحليل النقدي للخطاب يهرون من صرامة
نحو والقرف والأصوات وعلم المعنى. حقيقة الأمر أن الاتجاهات الوظيفية تتطلق
من كل ما سبق من مستويات تحليل اللغوي. ولا تتوقف عنده، بل تتجاوزة إلى
البنى الكبرى، والغليات، والمقاصد، والنصوص في سياقها، ولغة كما "يتداولها"
البشر وكما "تتداولهم".

نصوص وتطبيقات

بعض ما يرد فيما يلي تحليل، وبعضه هوامش على نصوص، وبعضه مسودات تحليل. ولا بد أن نعود فنقول مرة أخرى. قبل النصوص والتطبيقات. إن ما يصدق على النصوص اللغوية يصدق كذلك على النصوص البصرية. ففي الصور استعارات وتشبيهات، وتكرار، وحذف، وجناس، وطباق، وهكذا.

(١)

دعاء الفرج

"اللهم لحرمني بعينك التي لا تنام، واكفني بركك الذي لا يرام، ورحمني بقدرتك علي. فلا أهلك ولنت رجاتي: كم من نعمة قصت بها علي قل لك بها شكري. وكم من بلية ابتليتني بها قل لها عنك صبري. فها من قل عند نصته شكري فلم يحرمني. ويا من قل عند ابتلايه صبري فلم يخذلني، ويا من رقي علي الخطيأ فلم يفضحني. ويا ذا القم التي لا تحصي أهدا ويا ذا المعروف الذي لا ينقطع أهدا أعني علي ديني بنيائي وعلي آخرتي بتقواي، واحفظني فيما غبت عنه. ولا تكني لي نفسي فيما حضرت. يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة، اغفر لي ما لا يضرني واعطني ما لا ينقصك. يا وهاب أسالك فرجا قريبا وصبرا جميلا وعافية من جميع البليات وشكر العافية".

على سبيل التحليل

الدعاء نوع خطابي ديني يتوجه فيه العبد إلى ربه بطلب المغفرة، أو العون، أو الرزق. أو هؤلاء جميعا، أو ما عداهم. ولكل دعاء سياقه المختلفة فتسبى نكسرن

بمناسبة دينية، أو حاجة إنسانية، أو لحظة حرجة في حياة من يتوجه بالدعاء. يتلصص الدعاء على عقيدة وإيمان بالله أولاً وبقدرته على تحقيق ما يرد في الدعاء. وللدعاء أدب وشروط - هي بمثابة مبررات نجاعته في نظرية فعل الثقة كما تقدم - ومنها الشعور بالافتقار والحاجة إلى الله، والدعاء بما ينفع لا ما يضر. غير أن شرط وأدب الدعاء في الإسلام تتجاوز ما نجد من شروط ومقدمات فعل الثقة كما ورد من قبل.

من هذه الشروط والآداب ما هو اعتقادي روحي، كالإخلاص لله تعالى، واليقين بالإجابة، وحضور القلب، ومنها ما هو سلوكي أو شعوري، كاستقبال القبلة، والتضرع، والخشوع، والرغبة، والرغبة، وعدم الاستعجال، والدعاء في رخاء والشدّة، وتحري لوقت الإجابة، والمبادرة باغتنام الأحوال والأمكن التي هي من مطلق إجابة الدعاء، وكثرة الأعمال للصالحه، ورد المظالم مع قنوة، ورفع الأيدي في الدعاء، والوضوء قبل الدعاء إن تيسر، والتقرب إلى الله بكثرة تقوّل. والبعد عن المعاصي. وأن يكون المأكّل والمشرب والملبس وغيرهم من حلال. ومنها ما هو لفظي، كل يبدأ من يدعو بحمد الله والثناء عليه، ثم الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - ويختتم بذلك، والجزم، والإلحاح في الدعاء، وألا يسأل إلا الله وحده، وعدم الدعاء على الأهل والمال والولد والنفس، وخفض الصوت بالدعاء بين المخافتة والجهر، والاعتراف بالذنوب، والاستغفار منه، والاعتراف بالنقص، وشكر الله عليها، وعدم تكلف السجع في الدعاء، والدعاء ثلاثاً، وألا يصدي في الدعاء، وأن يبدأ داعي بنفسه إذا دعا لغيره، وأن يتوسل إلى الله باسمه الحسنی وصلاته الطي، أو يصل صالح قام به داعي نفسه، أو يدعاه رجل صالح له (بعض ما ورد في تخيص: الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين: "دعاء". من موقع <http://www.elafco.com>، بتصرف).

هذه الشروط والآداب، ومعظمها يرقى إلى مرتبة المؤمن، لأنها وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، تفسر كثيراً من خصائص النص الذي بين أيدينا. وتحقق له

المسك، ومنها تكرار المفردات: "صبري" و"شكري"، والبنى النحوية: "أحرسني بحرسك
 التي لا تتلم"، و"أفنفني بركتك الذي لا يزل"، و"أفرجا قريباً"، و"صبرا جميلاً"، و"على
 ديني بديناي" و"على آخرتي بقواي"، وتكرار صيغة "فعل" التي لا تفيد الأمر، بل
 الرجاء والتوسل والاستطاف، وصيغة لا تفعل التي لا تفيد النهي، بل الدعاء
 والالتماس، وترد مرة واحدة: "لا تكنلي"، ويحفل الدعاء كذلك بالطهارة، والتقبل،
 والجناس، والسجع: "نصّة" و"بلية"، و"عبت" و"حضرت"، و"قل شكري" "فلم يحرمني"،
 و"قل صبري" "فلم يخذلني"، و"تضرر" و"يضرر"، و"تنقص" و"ينقص".

ومن كمال الخضوع لله لأن المتكلم لا يرد في الدعاء إلا مفعولاً به أو لاجله:
 "أحرسني" و"أفنفني" و"أرحمني" و"أنصت بها علي" و"تبتيتني" و"يحرمني" و"يخذلني"
 و"رأتني" و"يفضحنني" و"أعني" و"أحفظني" و"لا تكنلي". في المواضع التي يرد فيها
 ضمير المخاطب الذي يعود على لفظ الجلالة في موقع المفعول به (لا تضره الذنوب"
 و"لا تنقصه المغفرة" و"لا يضررك" و"لا ينقصك") تنفني الأفعال جميعاً، ولا يرد المستكلم
 في موقع الفاعل إلا في مقام التوسل ("أسألك"). أو مجرد التوليد الذي لا يقع قطه
 على مفعول به ("عبت" و"حضرت"). لما الألب مع الله فيتجلى في ذكر بعض نصه،
 ومظفرته، وتجاوزته عن المعصية: "فلم يحرمني" و"فلم يخذلني"، وانشاء عليه عز وجل
 والإقرار بقدرته: "بعمرك التي لا تتلم" و"بركك الذي لا يزل"، ورحمته وكرمه: "إيا ذا
 نعم التي لا تحصى أبداً". هذا بالإضافة إلى ما تقدم من صيغ نحوية بلاغية تتسمج
 مع طبيعة العلاقة بين العبد وربّه.

بلاغة إسلامية

خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع

تبيته: لا بد أن يؤكد هنا أن التعامل مع خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم ليس كتعامل مع سفر تصوص البشرية - وهذا جزء من عبادة المسلم. لا ينبغي أن نتعامل مع النص بهدف تلخيصه أو نقله، بل لتلخيص على ما فيه من سبك وهيك واستعارات وإشارات وغير ذلك مما ورد في متن هذا التبسيط. وليس مطلوباً ممن لا يؤمنون بما يؤمن به المسلمون أن يتقنوا مع هذا الموقف.

”إن الحمد لله تَحْمَدُهُ وَتُسْتَغْفَرُهُ وَتُتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمَنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَنُشْهِدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَلُوصِيكُمُ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَلِحُكْمِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَاسْتِكْتِاحِ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، أَمَا بَعْدُ.

أيها الناس، اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري لطي لا لقلكم بعد علمي هذا في موقفكم هذا، أيها الناس، إن إيمانكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت، فليهم شهد. فمن كنت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي أئتمنته عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدا به ربا عني العباس بن عبد المطلب، وإن نساء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدا به دم عمر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإن مائر الجاهلية موضوعة غير الصدقة والسقاية، والعذق قود، وشبهه العدد ما قُتل بالحصى والحجر، ففيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئمن أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحفرون من أعمالكم، أيها الناس، إنما أنسيء زيادة في الكفر، يفضل به الذين كفروا، يحلون علما ويحرمونه علما، ليؤاخذوا عذة ما حرم الله، وإن

لزمان قد استدار كهينته يوم خلق الله السموات والأرض. وإن عذة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق. السموات والأرض. منها أربعة حرم. ثلاثة متواليات. وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس، إن لتسائلكم عليكم حقاً، وإن لكم عليهن حقاً، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكةوته بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يقعن بفاحشة، فمن فطن فإن الله قد أن لكم أن تفضلوهن وتهجروهن في المضجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فمن اتتهن وأطعنكم فطعنكم وزفهن وكسوتهن بالمعروف، وما النساء عنكم عور لا يملكن لأفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فقلوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً، أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئ ما أخيه إلا عن طيب نفسه، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

فلا ترجعوا بعدي كفراً يضرب بعضكم أعناق بعض، فبقي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أبلكم واحد، كلكم لأتم، وأتم من ترب، فكرمكم عند الله اتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بقنقوى، ألا هل بلغت؟ قلوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية، في أكثر من الثلث، والولد للفرش وللعاشر الحجر، من دعى إلى غير أبيه، لو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(الحق أفريد لابن عبد ربه الأنلسي، نسخة موقع لوزق، ص ص ٨٧ - ١٨٨).

لزمان قد استدر كهينته يوم خلق الله السموات والأرض. وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق. للسموات والأرض. منها أربعة حرم. ثلاثة متواليات. وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس، إن لنسאתكم عليكم حقا، وإن لكم علينا حقا، لكم علينا أن لا يوطنن أرضكم غيركم، ولا يدخلن أهدأ تهروته بيوتكم إلا بئفكم، ولا يقين بفاحشة، فإن فطن فإن الله قد أن لكم أن تفضلوهن وتهجروهن في المضجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فطعنكم ورزقهن وكسوتهن بالمعروف، وما أنساء عندكم عور لا يملكن لأفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا. أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئ مأل أخيه إلا عن طيب نفسه، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

فلا ترجعوا بعدي كفرا يضرب بعضكم بعض، فبقي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله، ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أبلكم واحد، كلكم لأدم، وأدم من تراب، فكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بقنقوى، ألا هل بلغت؟ قلوا: نعم. قال: قليلبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية، في أكثر من الثلث، وللولد للفرش وللأهل الحجر، من دعى إلى غير أبيه، لو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ٢٨٧ - ٢٨٨).

لزمان قد استدار كهينته يوم خلق الله السموات والأرض. وإن عذة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق. للسموات والأرض. منها أربعة حرم. ثلاثة متواليات. وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت، اللهم اشهد.

أيها الناس، إن لتسلككم عليكم حقا، وإن لكم عليكم حقا، لكم عليهم إن لا يوطنن فرثكم غيركم. ولا يخلن أحدا تركة من بيوتهم إلا بغيركم. ولا يقرن بغيركم. فإن فطن فإن الله قد أن لكم إن تفضلون وتهجرون في المضجع وتضربون ضربا غير مبرح. فإن اتتهن ولطعنكم فطعنكم ورزقهن وكسوتهن بالمعروف. ولما أنساء عنكم عور لا يملكن لأنفسهن شيئا، أنتموهن بأمانة الله. واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فلقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا. أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئ ما أخيه إلا عن طيب نفسه، ألا هل بلغت، اللهم اشهد.

فلا ترجعوا بعدي كفرا يضرب بعضكم أطبق بعض. فبقي قد تركت فيكم ما إن أنتم به لم تضلوا: كتاب الله، ألا هل بلغت، اللهم اشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أبلكم واحد، كلكم لأنم. وأنم من ترب. فترككم عند الله تفلكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ قلوا: نعم. قل: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية، في أكثر من الثلث، والولد للفرش وللأعراس الحجر، من دعي إلى غير أبيه، لو تولى غير مواليه، فطيه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي. نسخة موقع لوزرق. ص ص ٤٨٧ - ٤٨٨).

على سبيل التحليل

هذا نص من النصوص المحورية في الثقافة الإسلامية - خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم في آخر عام حج فيه قبل انتقاله إلى ربه عز وجل. في النص ما في جنس الخطبة من فاتحة دينية، واستغفار، وشهادة، ودعاء، وحلل وحرام، وترغيب وترهيب، وشيء من سرد قليل في الحديث عن ربا الجاهلية، وفيها مفردات دينية تتعلق بالمعتقدات، والعبادات، واقتباسات من القرآن الكريم، وفيها أحكام وتعاليم تتناول حرمة الدماء والأشهر الحرم، والوصية بالنساء، والمورث، والنسب، والتقوى كعلامة لفرقة، والحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوج والزوجة، وبين المؤمنين كافة، وتأكيد على المساواة بين البشر إلا فيما يميز بعضهم من بعض من تقوى.

سياق النص هو مكانه في مكة المكرمة، وزمانه حجة الوداع، والعلاقة بين المتكلم والمتلقي هي علاقة سماع وطاعة وفداء، ولعل هذا يفسر ما ترى في النص من سلطة إقناع، والتعظيم، والأمر والنهي، وهي سلطة إيجابية، ليست من قبيل القمع، أو القهر، أو التلاعب بالعقول، لأن غايتها هي صلاح امر المسلمين من خلال طاعة الله عز وجل، وتركية للنفس، وتحقيق للعدل، وعسرة الأرض.

لما قوت النص لتحقيق غاياته البلاغية والتبليغية فسترد الإشارة في بعضها فيما يلي. وقد نظم الكلام عن جنس النص وموضوعاته، غير أن من الصور لوقوف على نضج الخطبة أو ببقاعها إلا من خلال ما نجد من نص مكتوب، وما نعرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن سياق للخطبة كما نرى فيما يلي من ملاحظات عبارة على نص مهم.

تشتمل الخطبة فاتحة دينية تقليدية توارثها الخطباء والدعاة المسلمون عن الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى أصبحت قلباً خطيبياً أثيراً، وفيها الحمد والاستغفار، بما يرسخ الانتماء إلى الله، وفيها القسمة الخالدة بين المهتدين والضالين، والمشاهدين

بما يرسخ الانتماء إلى الإسلام، ثم النصيحة بتقوى الله وطاعته. يلي ذلك لفت انتباه المتلقي من خلال النداء "أيها الناس"، والأمر "اسمعوا مني". وتحديد غلبة غايات الخطاب - "لبيّن لكم" - وتبرير أهميته - "لعلّي لا ألقاكم". ثم ترد مجموعة من التعبيرات الإشارية المهمة يتركز فيها اسم الإشارة "هذا" للتقريب، فيحيل إلى وقت حج الرسول صلى الله عليه وسلم، وإشارة إلى المستقبل على سبيل الفطن "لعلّي لا ألقاكم...". تكتسب التعبيرات الإشارية دلالتها هنا من معرفة المتلقي ما تشير إليه والأرضية الاعتقادية التي يقف عليها خلف الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي حرمة ما ورد في الخطبة، حرمة الزمان والمكان المشترك بينهما.

وفي النص من فتوازي التركيب ما يوحى بتبادل الحقوق والواجبات في "كم عليهن" و"كهن عليكم"، وكثير من التكرار كما في "ألا هل بلغت...". للتحقق من بلوغ الرسالة، و"أيها الناس" للتنبية، وفيه اقتباسات من القرآن الكريم منها "لما أقمي زيادة في الكفر" و"إن عدة للشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب خلق السموات والأرض". تحتشد في الخطبة كذلك الجمل التقريرية اليقينية وكيفيات الالتزام من نواهد وفروض وتعاليم وتحليل وتحريم، بما يناسب المقام ويناسب علاقة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسلمين ويناسب أغراض الخطاب وغاياته.

في الخطبة ما يبرز الإلحاح على تحقيق غاياتها من حيث زمانها قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وموضوعاتها التي لا يصلح بغيرها لمر المسلمين. من هنا كان التكرار وحشد الأحكام والتعاليم والوصايا والاستشهاد بالله وشهاد عز وجل على أداء المهمة في العلاقة التواصلية - علاقة الوحي ثم التبليغ - التي ينطلق منها النص بين المسلمين وخالقهم ورسوله صلى الله عليه وسلم.

عن الإقناع في البلاغة الإسلامية

لماذا لم تتطور في البلاغة الإسلامية نظرية متكاملة في الإقناع؟
ربما لأن الوحي هو مدار الإقناع وهو معيار ما للكلام أو الخطب من تأثير في تلك البلاغة. إن الرسالة السماوية، وهي كلام الله المعجز، تحقق الإقناع، لا من خلال بنية بلاغية إقناعية، أو من خلال بلاغة خطيب مستمرس، بل من خلال ما فيها من كمال التوحد والانسجام بين الحق والجمال. وإذا لم يتحقق الإقناع، فليس الخلل في تلك الرسالة، بل في أداة تلقيها، ألا وهي القلب، فلرسالة قد نزلت في أكثر أشكال البلاغة كمالاً واكتمالاً، ونضى بها القرن، وهو ما يشير بوضوح إلى أن التفسير عن إيراد كلام الله مرده إلى عجز الفرد أو المجتمع عن السمع أو زهدهما فيه.

إن العجز عن سماع كلام الله من العلامات التي تميز الشياطين وأهل النار من البشر: "... لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها..." (الأعراف، الآية ١٧٩).

وعندما يستجيب البشر لكلام غيرهم أو لكلام الله، دون سلبية أو تفسير، فإن فعل الاستجابة يختص به السامع، على معنى أن السمع أو الاستماع ليس مجرد استقبال سلبي تلقائي، بل هو نوع من الفعل: فاسمع أو استمع، إذن فالفعل، لهذا السبب، لا تتطلب الرسالة السماوية في العقيدة الإسلامية خطيباً بليغاً، بل مستمعا واعياً يستطيع أن يسمع ما يصل إليه من كلام الله، فيبلاغ الرسالة وكمالها وأعجزها بما يستعصي على الترجمة تكمن في ذاتها لا في بلاغة من ينقلها أو يبلغها..." (هيرشكيند Hirschkind، ٢٠٠٦، ص ٥٠).

يؤكد هذا الاقتباس على حقيقة مهمة، وهي أن الاستماع فعل كالكلام، وربما يتجاوز في الأهمية في بعض المواضع. وهو هكذا خصوصاً في ثقافة صوتية في كثير من تجلياتها. ويشير الاقتباس كذلك عدداً من القضايا تتعلق بالفروق الجوهرية بين الإقناع الذي يقوم على الاستشهاد والاقتباس، والإقناع الأرسطي الذي يقوم على الحاجة واستثارة مشاعر من قبل الخوف أو الشفقة pathos وتقديم الدليل العقلي logos والتأسيس لمصدقية المتكلم ethos. لا ينبغي أن نقع في أشرار القولية التي تصنف الثقافات في عرقية معينة وروحية نقابية، وتتحاز إلى بعضها دون بعض، فنقصي الوحي لحساب العقل - وكله يعجز عن مخاطبته - أو نسفه العقل لحساب العقل. وهذا مقل لا قبل لمقام التبسيط الراهن بالإحاطة به من جميع جوانبه.

خطابة سياسية إسلامية

من خطبة لأبي العباس السفاح بالشام

"خطب أبو العباس عبد الله بن محمد علي، لما قتل مروان بن محمد، فقال: ألم تر إلى الذين بنكوا نعمة الله كفراً ولحللوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها وبئس القرار. نكص بكم يا أهل الشام آل حرب، وآل مروان، يتسفعون بكم الظلم، ويتهوون بكم مداحض الزلقي، يطوون بكم حرم الله وحرم رسوله، ماذا يقول زعمائكم غدا؟ يقولون: ربنا هؤلاء أضلونا فقتلهم عذاباً عظيماً من النار. فإذ يقول الله عز وجل لئن ضقت لديكم ولكن لا تعلمون. أما أمير المؤمنين، فقد فتفت بكم التوبة، واغفر لكم الذلّة، وبسط لكم الإقالة، وعاد بفضله على أنفسكم. ويحلمه على جهلكم، فلينرحل روعكم، ولتطمئن به دياركم، ولتعتك مصرغ لوقاكم. فتلك بيوتهم خالية بما ظلموا" (لقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ٥٠٨).

على سبيل التحليل

لا بد أن يتأسس تحليل خطاب كهذا على وصف متفصل للمسبق بما يشمل المتكلم، أول الخلفاء العبّاسيين، والقتل - مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية - وأهل الشام وآل حرب وآل مروان، وما كان يجمع أو يفرق بين هؤلاء جميعاً، وكذا الحضور الذين توجه إليهم المتكلم بالخطاب، والظروف السياسية والاجتماعية التي نعلقت به. أما غايت الخطاب فتشمل التوبيخ - "بنكوا نعمة الله كفراً" - ثم الإبلاغ بالظن - "أما أمير المؤمنين ... اغفر لكم الذلّة ..." - والدعوة إلى الاعتذار - "واعتك مصرغ لوقاكم". وفي الإبلاغ بالظن جملة أفعال كلامية: قبل توبيخكم وغر زلتكم وأقل عثرتكم وتفضل عليكم وقابل جهلكم بحلمه. وفي الاعتذار والاعتذار مجاهدة ربما لأن الذنب كان عظيماً.

في النص ثلاثة مقدمات من القرن الكريم، لا ترد نقطة أو مقحمة. بل جزءاً من نسجه. وكان المتكلم يريد أن يقول إن الآيات المقتبسة قد نزلت في أهل الشام ومن "نكص بهم" من آل حرب وآل مروان: "ألم تر إلى الذين يتكلمون بكلاماً عفاً عما هم عليه، لا يدرى لهم شيء مما يقولون ولا يأتهم بما تكلموا من حق، إنما هم تكلمون بالباطل والظلمة". "فما كان من ذلك إلا أن ألقى بهم سخطاً من النار". "فكذلك بيوتهم غلوة بما ظلموا". إذا كانت القاعدة التفسيرية الإسلامية تقول إن العبرة بصوم اللفظ وليست بخصوص المسبب. فإن ما أراد المتكلم لجمهوره في ذلك السياق هو التسليم بأن ما وقع منهم ومن آل حرب وآل مروان يندرج تحت تبديل "كلمة الله كلفاً". وغير ذلك مما يرد في بقية المقدمات. (ويبدو أن هذه الوسيلة من سمات كثير من الخطب السياسية، فقد شبه يوش صدام بهتلر، وشبه حسن نصر الله إسماعيل بفرعون وحاشيته، كما نجد في خطبه في تطبيق لاحق في هذا التبسيط)

ليس هذا الخطاب الموجز فريداً في باب توظيف التلمذة والحكماء لقرن الكريم لتحقيق غايات بلاغية سياسية في العالم العربي والإسلامي. حتى الذين لا يطبقون ما فيه من أحكام بلونون به ليضمنوا تعاطف عامة المسلمين. ليست الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وسيلة من أكثر وسائل الدعاية الانتخابية نجاعة في العالم الإسلامي؟ لقد ظلّ الذين سلاحي مؤثراً فعالاً في يد التلمذة والحكماء بطول العالم العربي الإسلامي وعرضه، في ماضيه وحاضره، يستعملون به القسوب، وربما يتلاعبون بالخطوط، ويضمنون تأييد الرعية، ويجيشون به الجيوش، ويستولون به نصر الله، حتى وهم يتقاتلون فيما بينهم.

وفي نصّ أبي العباس ثناتيات لاقتة تميز مصكر أمير المؤمنين - حيث الحكمة، والإيمان، والاحتيال إلى جانب الله، والعلو، والكرم، والفضل، والحلم - من مصكر الخارجين من أهل الشام ومن ضلّهم من آل حرب وآل مروان - حيث نكص العهد، والتمير، والتمسح، والتهور، والاجترار على حرمت الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والتضليل، والضلّال، والنقص، والجهل، تتحقّق القطيعة أو التفتة في الخطاب من خلال الترافف والمجع بين مفردات الانحراف عن جادة الطريق والخروج على

الحكم في "يتسعون" و"يتهورون" و"يطؤون" و"اضلون"، ومفردات فطو وفضل والحكم في مصكر لمير المؤمنين، وما بين هاتين المجموعتين من المفردات من تقابل. بين "الزلة" و"غفر"، وبين "فضلة" و"تقصم"، وبين "حمة" و"جهنكم"، وهكذا. ويبقى على من ضلوا وجهلوا أن تعظمهم مصارع لوقلهم - وفي هذا استعارة فعل بشرى هو الوعظ والتعليم للكلام عن المصارع - فما شبه قليلة بقلوحة!

سوف نقتل تلك التثنيات سمة جوهريّة من سمات الخطاب السياسي. وليس من غايات تحليل هذا النوع من الخطاب استخلاص أحكام تتحرّ في طرف على حساب غيره. من حق من يدرس الخطاب السياسي أن تكون له تحيزاته وميوله. فهو في نهاية الامر بشر. لكن ليس من وظائفه أن يقضي بين أطراف الصراع. إن غاية التحليل والدراسة في هذا الصدد هي الوقوف على ما في الخطاب من صراع، وجدليات، وطرائق التعبير عنها، ووسائل تبريرها، وما يمزج الخطاب من تجميل وتقييح. وإسباغ شرعية على النفس وتجريد المعلنين منها.

الدعاية في التراث الإسلامي

بلغت برنارد لويس Lewis (٢٠٠١) للنظر في العلاقة الاستقطابية بين مفردات "الدعاة" و"الدعوة" و"الدعاية" و"الإذاعة" و"المذعي" و"الدعي" و"الدعاية". حيث ترد جميعها من أصل واحد هو الفعل الثلاثي "د ع و". غير أنه - وهو لمستشرق المشهور - يعرف أن بعض هذه المفردات سلب مستهجن. وبعضها مقبول وإيجابي. على أساس ما يتحقق للمتلقى من خير أو شر. وما يصد إليه منكم أو لكتب من صدق أو تحليل في الوصول إلى غايته البلاغية. بعد هذا التلميس، يفرّج للمستشرق على مراحل شتى في تاريخ الدعاية في الثقافة الإسلامية. فيتوقف عند الدعاية لبنى عباس في مواجهة بني أمية، وأغراض الفخر والهجاء والمديح في شعر العربي، وفيها ما فيها من دعاية للشاعر وقبيلته. وتشويه للخصوم والمناوئين والمنافسين، وتمجيد من يحظون بالمديح. وهذه أصول مهمة في البلاغة العربية تستلزم وقفات تداولية عميقة مستفيضة.

من أصداء السيرة الذاتية لنجيب محفوظ

"في صباي مرضت مرضاً لازمني بضعة أشهر. تغير الجو من حولي بصورة مذهلة وتغيرت المعاملة. ولت دنيا الإرهاب، وتلفتني أحضان فرعية وحضان. لمي لا تفارقي ولبي يمر علي في الذهاب والإياب. ولخوتي يقبلون بلهدايا لا زجر ولا تعيير بالسقوط في الامتحانات. ولما تماثلت للشفاء خفت أشد الخوف الرجوع إلى الجحيم. عند ذك خلق بين جوارحي شخص جديد، صممت على الاحتفاظ بجو الحنان والكرامة. إذا كان الاجتهاد مفتاح السعادة فلأجتهد مهما كلفني ذلك من عناء. وجعلت قلب من نجاح إلى نجاح، وأصبح الجميع أصديقي وأحبتي. هيهات أن يفوز مريض بجمل الذكر مثل مرضي" (نجيب محفوظ: ذين قديم من أصداء السيرة الذاتية، ٢٠٠٦).

ظروف وأحوال

هذه شذرة مُحكمة بليغة من شذرات أصداء سيرة نجيب محفوظ الذاتية. تتكى الشذرة على الطباق بين حالين والترافق بين عناصر كل من الحالين، بين "الإرهاب" و"الزجر" و"تعيير بالسقوط في الامتحانات" و"الجحيم"، من ناحية، و"فرعية" و"حضان" و"لا تفارقي" و"بمر علي" و"لهديا" و"السعادة" و"تنجاح"، من قنحية الأخرى. إشارتان زمنيتان تلفتان القارئ إلى لحظتين فارقيتين في حياة المستكم في النص - "في صباي" و"عند ذلك". لما الحدث فهو المرض الذي لازمه شهوراً - "مرضت". ما ترافق مع المرض من سلوك ونود رحيم ورعية وغنية - "تغير الجو من حولي" - أنتجت وعياً وإدراكاً - "خلق بين جوارحي شخص جديد" - وعزماً -

"صنمت على الاحتفاظ بجو الحنان والكرامة" - وخبرة تصبح منهج حياة - "إذا كان الاجتهاد مفتاح السعادة فلأجتهد مهما كلفني ذلك من عناء" - ثم فعلا يجلبها يتكرر حتى يصبح عادة - "وجعنت أثب من نجاح إلى نجاح".

لقي الصبي صدقة ومحبة هذه المرة أيضا لكن لأسباب مختلفة. فسي لمرض كان الصبي موضع عطف وشفقة، ولم تكن له يد أو اختيار - بل كان مجرد مريض متبع يقع عليه فعل الرعاية ويحظى بصنوف العطف - "تلففتني"، "لا يفارضي"، "يمر علي"، "يقبلون بالهدايا (عليه)". حين يتحقق الوعي، يصبح الصبي قعدا على اتخاذ القرار، بل على تحقيق النجاح مرة إثر أخرى، في نشاط وحيوية ورادة - "تب". وفي "الوثب" مستعارة للمسلم الذي يرقى إلى أعلى، أو الطريق الذي يحفل بالصعب والعقبات، وكنية عن القوة والحيوية. فلماذا لا ينكر المرض بكل الخير إذا كان قد حقق الوعي واستك القدرة على الفعل بسببه؟ غير أن المرض لم يكن هو العامل الفاعل، بل كانت الرعاية والاهتمام وقد حلا محل "الإرهاب".

لا بد أن اختيار نجيب محفوظ "الشجرة" نواة لأصداء سيرته الذاتية كان مقصودا. والحال هكذا في عموم الخطاب الإنساني حيث يصبح الإطار frame الذي ينقل التجربة والخبرة الإنسانية جزءا مهما منها وأداة مؤثرة في نقلها. لعل محفوظ أراد لخبراته وخلاصة تجربته أن تنتقل إلى المتلقي في نصوص مركزة مكثفة تحفل بالرمز والمجاز وتتعد فيها طبقات المعنى. ومن ثلثت كذلك تحوّل العلاقات في هذا النص القصير المحكم من إرهاب وقهر إلى رعاية وعناية. ليس هذا كل ما يمكن أن يقال عن التظاير framing أو تحوّل العلاقات والاحيوات والموقف خلال التفاعل اللغوي footing - وهما مفهومان بالغا الأهمية من ميراث رفسنج جوفسان في التحليل النقدي للخطاب، إذ يشير الأول إلى الزاوية التي ينطلق منها الخطاب والإطار الذي يختاره منتجه من جد أو هزل أو مسخرية أو غير ذلك. ويشير الثاني إلى تبديل الأحوال والعلاقات أثناء التفاعل اللغوي وما ينجم عن ذلك من تحولات في المفردات والأسلوب وغير ذلك، بل وما تلعب اللغة من دور في تجسيد هذه التبدلات والتحولات.

خطاب الكرة

إعلام المسيار ومتعب والزمالك!!

عبدالعزیز أبو حمر، المصريون، ٢ يونيو ٢٠٠٨

لم يكن مسئولوا الإسماعيلي فقط هم الذين اخترقوا حرمة مصر المنتخب الوطني قبل المباراة الهامة أمام الكونغو، بل فعل ذلك أيضا عبر الهاتف قناة تكتب في أحد المواقع الجماهيرية الإلكترونية، لتجري عشية اللقاء حوارا قل فيه عبد متعب مهلج الأهلي كلاما في حق نادي كبير لا يجوز من لاعب بنادي كبير وبالقناعة يفترض أنه لاعب كبير. وإذا صدق ما كتب على لسان متعب من أن الحالة الوحيدة التي يمكن أن ينتقل فيها الزمالك هي أن يصاب بمس من الجتوت وفقدان الوعي، فإن ذلك يشكل إساءة مباشرة للزمالك تضلف لإساءات كل من هب ودب للقاعة البيضاء في العهد الميمون للضارب بالذئف. ولا أدري ما ذنب الزمالك، وما فائدة هكذا تصريح وماذا سيضيف كلام ونضج بالفهاء للاعب ينتمي للنادي الكبير الذي يجب أن يعاقب لآعبه صغير الطلل مثلما يجب على المسئولين بالمنتخب اتخاذ إجراء ضد متعب على أساس أن هذا الحوار - إن صدق - تم ليلة مباراة الكونغو. ولجمالاً فإن دخول الجنس اللطيف من المشجعات إلى غمار الإعلام الرياضي الإلكتروني الجماهيري يطرح علامات استلهم عديدة. ونكرني حوار المتعب بلشا بتصريح كن الوحيد والأحد لشوقي بلشا عندما كان يجري الاختبارات في نادي ميلدزيرد الإنجليزي الصيف الماضي، وهو التصريح الذي نشر هو الآخر في موقع من المواقع الجماهيرية. وكتبته أيضا فتاة بدرجة مشجعة.. ولمضى أن شبائين لم يردا إلا على فتاتين!!! وحتى لا يتهم لحد العبد لله بأنه معادي للثأوية، فما نضع تحته خطأ هو

التداعيات السلبية المحتملة لتحول المشجعات إلى إعلاميات مسير كحل مؤقت لضمان رد لاعب (روش) في زمن النجومية المطلقة مثل منتع على قهاتف.. والحد من لاطب حمام البدرى مدير الكرة بالأهلى بالتحقيق فى الواقعة أو حتى الاستفسار من لاطب عن صحة هذه التصريحات للقبية.. والحد من لاطب حسن شحاته بنفسير حول لاطب فى المنتخب بتصريحات ضد نادى منفس (مشجعة) عشية لقاء دولى هام ظل فيه اللاعب طيلة ٩٠ دقيقة ناله يبحث عن الكرة بعيدا عن المكان الذى تتواجد فيه الكرة!!.. والحقيقة أن الإعلام الإكترونى الجماهيرى المحسوب على الاندية ليس فقط لاذى يفتح أبوابه للمشجعات المسير، فلكثير من اصحاب الأعلام الكبيرة تحولوا كذلك إلى (إعلاميين بدرجة مشجعين) يروجون للتصيب والتغيب، ويقت لا ترى أعينهم إلا لون واحد، فلا كلمة حق ولا منطق ولا بصيرة تحكم ما يقولون. وأصبح الوسط للكروى يقص بمثل هذا النوع فردى من اصحاب الأعلام الحنجورية التى لم تلج أساليبهم للرخصة إلا مع حفنة من المعبين.. كقفا الله ويلكم شر اصحاب لقال المشجعين.. المسير والكبر!!

كلمة أخيرة: الخجل فضيلة.. بجهلها لاصحاب الأوجه المكشوفة..

على سبيل التحليل

فى هذه المقالة، عدد لا بأس به من الأخطاء النحوية والإملائية، وفترتيب المركبة التى يجد القارئ تحت بعضها خطوطا، وهىها ليس بين "الخجل" و"الحياة"، لأن الخجل ليس فضيلة على الإطلاق، بل هو تأخر فى النمو الاجتماعى والنفسى. لكن الغاية هنا ليست التصيد، بل للتعليق على بعض جوانب "خطاب لكرة" football discourse وما يتصل به من خطاب إعلامى وجماهيرى فى ضوء بعض ما ورد فى التبسيط من مفاهيم ونظريات.

سبق المقالة - التي تأتي في أعقاب مباراة مصر ضد كوتنغو في تصفيات المؤهلة إلى كأس العالم في جنوب إفريقيا عام ٢٠١٠ - هو "قوسط الكروي" في مصر. وما يحفل به من صراعات، وتصريحات، وتصريحات مضادة بين نقاد الفرق المتصارعة، ولاعيها، وجماهيرها.

من المناسب. ونحن نتناول هذا النص الذي ينتمي إلى خطاب الكرة وما يتصل به من خطابات، أن نتناول السبك والحبك وطرافتهما، والاستعارات المهمة، والتجميل والتفويض والمربع الأيديولوجي، وتعبير الكيسة والتأنيب وتلقضهما.

لما السبك فيتحقق باستخدام أنوات الربط وتكرر عدد من المفردات والعبارات - "بعد من" وتكرر "الكرة" على ثقله في "يبحث عن فكرة بعيدا عن الممكن الذي تتواجد فيه الكرة، و"كبير" (مقلا ومنزلة لا سنا) - والجناس - "مقيمين" و"تغيب"، و"بشا" و"البنانيين" - والطباق - "الخجل" و"المكتوفة" - والحقول لدالية - "ثنوية" و"روش" و"مسيل"، إضافة إلى المفردات الكروية. والمقالة لا يعوزها حبك، على ما فيها مما يمكن أن نتحفظ عليه، فهي تمهد الطريق بلفت الانتباه إلى "لخترق" - لخترق "حرمة" مصكر للمنتخب قبل لقاء دولي مهم. ولخترق اعرف رياضيه لخلقية. ثم تروي المقالة ما حدث، وتلجأ إلى التناص بلفظ بعض ما قل اللاعب تحقيقا لقاعدة الصديق وتجنباً لمناعب الاتهامات غير المبررة. بعد السرد يأتي التفويض، أو توضيح موقف الكاتب مما حدث، وهو موقف معارض كاره. وحتى لا يبدو الموقف "شخصيا"، يمسق الكاتب بتربيره خطورة ما حدث بينما كان الفريق القومي في "حرمة" يتاهب للقاء دولي مهم في تصفيات كأس العالم، حلم "الأمة" وغايتها الكبرى - وكلها "فتنة" في زمن "حرب"، الاختراق وإثارة الفتنة في مثل هذه الظروف جريمة لا ينبغي المسكوت عليها - وهي ليست الحالة الوحيدة للفريدة فقد سبقها فنن أخرى ممثلة. من هذا المنطلق، تصبح "مطالب" الكاتب الصحفي منطقية. وهكذا تتحقق لفعل المطالبة مشروعته وربما نجاعته. في النهاية يلاحظ الكاتب أن قوسط الكروي "بجمالا" يشكو من التعصب والاحتياز وما ينجم عنهما من تغيب وعلة وظلم. ثم دعاء إلى الله أن يكفي الكاتب ومن أزره من القراء شر الأقلام المنحرفة الداعة

عن خطاب الكرة

من تداعيت الحداثة وما بعدها، وربما من منبراتها. تهيل الحدود بين "تخبوي" و"قشبي" أو الجماهيري، بين المتون والهوامش، بين المركز والاطراف أو "الضواحي" الثقافية واللغوية - بين اللهجات المحلية واللفات الرسمية، بين الأغنيات والاغبيات، في غناء "شعبان عبد الرحيم" عن القضية الفلسطينية وقصة "الرسوم الممينة" وغيرها، وفي "استلهام" إحدى أغنيات "أم كلثوم" في فيلم لـ "محمد سطر"، وهكذا. وفي تدخل الأنواع الأدبية وتشربها بالحياة المعيشة. غير أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد حلت الهوامش محل المتون، وأصبح "جماهيري" يحظى بالاهتمام والحفاوة والتنظية والمتابعة والتحليل والتعليق، وتزوى "تخبوي" في زكن الحياة وهوامشها. قرن مثلاً بين التغطية الإعلامية، والتحليل، والتطبيق، واللقاءات، والمؤتمرات الصحفية، والأغنيات، والشعارات، والمسيرات التي تصاحب مباراة مهمة في كرة القدم أو "حفلة" لمطرب أو مطربة، وبين ما يصلح مؤتمراً علمياً أو مناقشة رسمية أكاديمية.

لم بعد ذلك بداً لدراسات الخطاب من أن تعترف بالتحوّل دون أن تتخلى عن اشتغالها التي تراها مهمة، لأن التحليل النقدي للخطاب ليس تخبوا بطبعه. وفي الاعتراف لا بد أن تبقى تلك الدراسات بعيدة عن إشراك التنصّب والتصنيف والاهتمام، لأن من يهرولون وراء الرياضة والفن بشر كالبشر، ميولهم ليست كميوّنات، ولا فولويتهم كأولوياتنا، ولا قيمهم كقيمنا. إذا جرّ لمن ينشغل بالثقافة والفكر أن يحتقر من ينشغل أو يشتغل بالفن أو الرياضة وما يتصل بهما، فمن حقّ أهل الفن والرياضة وما يتصل بهما أن يتهاكّما على أهل الفكر والثقافة. ولكلّ نسبه ووصفه وسلخته، وفي الحرب كل شيء مباح.

لموتورة، ثم الحكمة الختلمية عن فضيلة "الخجل" التي لا يعرفها أصحاب "لوجوه المكشوفة".

ها هو الكتب يقف إلى جانب الفضيلة والخجل، وينحز إلى القيم الدينية، يدفع عن "حرمة" منتخب قبل اللقاء المهم، ويتحدث بلسان "الحق" و"المنطق" و"البصيرة" وهو يطلب بمحاسبة من أثار الفتنة. من هذا المكان، يكتب ضد "كل من هب ونب" في "العهد الميمون" "للضارب" "بالدف"، ضد كلام "ينضح بقضاء"، ولاعب "صغير العقل" - "المنع بشا" الذي "تأه" طول المباراة المذكورة - و"شوقي بشا"، وهما لا يجيبان إلا الفتيت، وضد "تصريحات غريبة"، و"إعلاميات مسول" و"مشجعات مسول"، و"اعلاميين بدرجة مشجعين".

لا يعرفون "الحق" ولا "البصيرة" ولا "المنطق"، لا تصلح استقيهم الا مع "المنفيين". لا يتوقف الكتب الصلحي عند ثنائية الخير والشر، الحق والباطل، لزواج الشرعي وزواج الممسول، وتجميل "الأنا" مع تقبيح "الآخر"، بل يتجاوز ذلك إلى تكريس خطاب الكرة بوصفه "كلاما كبيرا" يليق أن تستعير له "الحرمة" و"الممسول" و"التغيب"، وأن تعبر من خلاله عن معتقداتك ومواقفك للفقهية من زواج الممسول - ومن الواضح أن الكتب لا يعتبره زولجا شرعيا، بل مجرد زواج مؤقت لتحقيق غيت نبوية مؤقتة، تشبه استخدام فتيت لجذب نجوم الكرة المعروفين "بالروشنه" - مع الاعتذار لمجتمع اللغة العربية - وإقتاعهم بإجراء حوار.

ومن نفس المكان، وحتى يتحقق التجميل والتقبيح يصعد الكتب - "قصيدة"، على سبيل التواضع - إضافة إلى ما سبق، إلى تأكيد براسته من معاداة الانثوية - ولطه يقصد feminism - وتأكيد أن ما يقول هو "الحق" و"الحقيقة" فـ "صدق" ما ورد عن اللاعب، في الاتجاه المعاكس، يصعد الكتب إلى تشويه اللاعب، واعلام الممسول، ونقد التقريب، و"الأقلام الحنجورية"، على سبيل الاستعارة، فلا نجد إلا لحد الأمنسي من الكياسة على سبيل المخرية في "العهد الميمون" و"بشاش"، والتعظيم وتقدي الصدام في "الضارب بالدف"، والتكريم في "القلعة البيضاء"، التي تشير على سبيل الاستعارة إلى نادي الزمالك، خصم النادي الأهلي الذي ينتمي إليه اللاعب "منع".

لقد أصبحت الهوامش والفروع، بل فروع الفروع، تشغل الناس عن الأصول والفضائل التي تستمر بها حياتهم. إن ثقلان بين استقبال رسمي لفريق كرة قدم فتر ببطولة وبين استقبال عالم كبير حصل على جائزة علمية عالمية مرموقة. لأن المقارنة تُفسر عادة على أنها نوع من الحمد والغيرة من قبل المشتغلين بالثقافة. فما مضى أن ينشغل الناس بالفن وبالكرة عن مشكلاتهم الأسرية، وعن أعمالهم ودراساتهم، وتطوير مهاراتهم وقدراتهم، وتنمية ملكاتهم، وعن مشكلات ابناتهم وبناتهم، و"رغيف الخبز" الذي عزّ ونزر، وانهيار التعليم، وفتش الفساد، وترجع الجامعات العربية في وجه غيرها من جامعات، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً؟ من اليسير أن نقع في شرك الخطيئة هنا، لكن السؤال مشروع ومطلوب.

ومن ثلاث نـ "الفن" و"الكرة" - وقد أصبحت لهما مؤسساتهما، ومنظمتاهما، وقوانينهما، وشراحيهما، ومحلوهما، ومؤرخوهما، ومنظروهما - قد جاوزا مرحلة الهزل أو الهواية والتسمية إلى مرحلة الاحتراف والمهنية. ولعلنا نلاحظ التحول المنتظم في كل النقطة على نطلقات محلية وعالمية في التعامل مع الفن والرياضة بوصفهما "عباءة" لا ترضاه الأسرة "العريقة" أو "حرفاً" أو "مضيعة للوقت"، إلى إصر واقع على الأسرة والمحيطين للتكيف معه، ثم إلى مصدر سعادة ونوال وشهرة، وفي النهاية إلى نماذج يحتذىها الصغار ويحلمون بها، إلى "طريق إلى المجد" وسما من "فنجوم" و"الكوكب" وأرض تحفل بها لا حصر له من "أصنام" - والكلمة ليست لى، بل من البرنامج الأمريكي الشهير American Idol - تتفوق في شهرتها ونفوذها وتأثيرها وبريقها وثروتها على "اللات" و"العزى" و"هيل" و"مناة"، و"يوت" و"يموى" و"تسر"، و"فرويديت"، وغيرها ممن سكن جبال الأوليمب، فكيف لا تتفوق على مفكر أو بلحث أو مدرّس؟

هناك محاولات للتوفيق أو التوافق ولتضييق المسافات والتقريب بين العتوان والهوامش، ولآخرى لرد الاعتبار إلى الهوامش التي كادت متوترة وخسرت بشرية كثيراً جراء تهميشها. نجد ذلك في المبادرات المهمة لتقديم الثقافة "الرفيعة" من نقد

شعر ورواية وقصة ومسرحية وغيرها عبر قنوات فضائية ومواقع إلكترونية، وفي الجوائز التي أصبحت تمنح للمفكرين والكتاب والمثقفين. وهناك محاولات توفيق، أو تنسيق، نجدها في استخدام بعض - "بعض" - الدعاة أساليب فنية وتمثيلية. وربما غنائية، في خطبهم الدينية، ونجدها في تقريبهم وربطهم بأهل الفن والرياضة والإعلام. وهناك محاولات جادة - غير أنها نادرة وليست راجعة - لاستخدام الفن والرياضة لتحقيق غايات "تبليغية" كانت منوطة بغير أهل الفن والرياضة - كجمع التبرعات والدعوة إلى التعاطف مع "المقهورين" و"المظلومين" في الأرض.

لقد أصبحت كرة القدم محور إشغال الملايين، وتشجيعهم، وصخبهم، ولهمهم، وجنونهم لحبها، وأصبحت لها صحف ومجلات، ومواقع إلكترونية، وطورت خطبها لخاص - "خطاب الكرة" أو "خطاب كرة القدم". في هذا الخطب استعارات تنتقل من مجال الحرب والصراع والقتال إلى مباريات كرة القدم، وغيرها من أنواع الرياضة، كما نجد في "مصكر"، و"خط الدفاع"، و"الهجوم"، و"المنطقة"، و"الاختراق"، و"التسلل"، و"خطة هجوم"، و"خطة دفاع"، و"لكل حصون الخصم"، و"قذيفة مدوية"، و"هاتف"، و"المرمى"، و"الحارس"، و"ضربات" "الزوية" و"الجزاء"، وغيرها، والهجوم "قشرس"، و"الدفاع المحكم"، و"الحائط الدفاعي"، و"هجوم خاطف"، و"هجمة مرتدة"، و"تصحر"، و"الهزيمة"، وهكذا. كما أصبحت كرة القدم تغذي غيرها من الخطب باستعاراتها المحورية، كما نجد في "البطاقات الصفراء" و"الحمراء" التي تشهرها الزوجات في وجوه أزواجهن في الرسوم الكاريكاتيرية، وغير ذلك من تعبير تتسلل من الكرة إلى العلاقة الزوجية في "مختلفا" جوانبها.

كذلك أصبحت الرياضة - خصوصاً كرة القدم - ساحة صراع، وتسلط هويات، وتتطس بين عرقيات وجنسيات. وقد رأينا "كرة" تحمل أحلام شعوبها من خلال فريق "قومي" و"وطني"، في الاستقلال والانفصال عن الكيانات الكبرى كالإتحاد السوفيتي الذي تحللت أوصاله إلى دول ودويلات، ورأينا أن المباريات بين دول يعينها نظراً لمتنها شرسة تحفل بالتوتر على خلفية الانتماءات والصراعات السياسية. بين

الولايات المتحدة وإيران، وبين عدد لا بأس به من الدول العربية وجاراتها. ولربنا ونرى كيف يعجز اللاعبون عن انتماءاتهم السياسية والدينية والقومية بما يقولون وبما يحملون من رسوم وشعارات على ملابسهم الرياضية - هذا إضافة إلى الانتماءات "المؤقتة"، "مدفوعة الثمن"، إلى بعض المنتجات والأسماء التجارية. الرياضة اليوم "حياة موازية" تلقى بظلالها الكثيفة على حياتنا. بل تحركها أو توقفها. كما نجد في شوارع مدينة القاهرة لقاء مباراة مهمة بين فريقين كبيرين أو بين مصر ودولة أخرى في مسابقة مهمة، أو في ظروف "كروية" حرجية. بل أصبح الرياضيون والمولعون بالرياضة يطلبون منا أن نتعلم منها لصالح حياتنا. فلماذا لا نلعب في حياتنا بروح الفريق؟ ولماذا لا نتعاون؟ ولماذا لا نتحلى بروح الرياضية؟ ولماذا يجب أن نخسر بسبب الأتانية أو فقدان الحماس؟ في اتجاه معكس، يطلب الحكماء من الرياضيين أن يتعلموا من أمجادهم. ويطولاتهم القومية. وإجراتهم الحضارية. ولن "يعدوا" لأنفسهم ما استطاعوا "من قوة". ولن "يجاهدوا" لرفع راية بلادهم. ولن يكونوا في جهادهم "أسرة" ولحدة. وسوف "ينصرهم الله" حتماً.

نافذة على النافذة

"ولمّا رآها السيد بن تكس الغرفة مرة أخرى فتحت صامتة لأن الغرفة نظيفة ولأن هذا مجرد عثر لكي يتطلع إلى جسمها الجميل. تفتح النافذة، بعد أن يخرج السيد، تصطحب الهواء الذي يستقبلها بضحكة عنبة. "تطيرين؟" "أطير". بالخذها إلى مكان تراهو فيه الألوان وتومض تحت انعكسات في الجدول حيث الماء نقي وشفاف. النساء تستمع والرجال يلفظون ثمار الأشجار والأطفال يمرحون على العشب. تسأل طفلاً: "كلّهو منذ وقت طويل ألا تشعر بجوع؟" يضحك الطفل: "عم تتحدثين؟" فتقول له: "سوف تمرض إذا لم تأكل". بهز الطفل رأسه: "كنت جوعاً ولم امض قط". تقول: "ولكن الموت". يضحك عالياً. تسأله: "ماذا تفتح فكك هكذا وتطلق هذا الصوت الغريب؟" يجيبها بدهشة: "أنا اضحك". ثم يجري بعيداً عنها. تحاول أن تلعل منه. تفتح فكها وتلفع صوتاً ممزقاً من صدرها. "ماذا تلعطين؟" تعلق النافذة بسرعة. كان السيد يتأمل ظهرها. "تتبعين كالكلية" (أمين صالح: النافذة، ١٩٧٥).

للقوف على بعض ما يشتمل عليه التحليل الوظيفي من تشكيلات وما يتيح من أفاق دلالية وبلاغية، نطلع جزءاً من قصة قصيرة جداً هي النافذة لأمين صالح. وتحديدًا ما فيها من فعل ولحادث وحالات. مجرد مسودة تحليل. وخطوط عريضة تفنّن إلى الشمول والصق:

§ "لمّا رآها السيد": فعل لفظي، يقع (ثبوت) ويشي بسلطة السيد عليها ويؤسس علاقة فهو تمتد إلى النهاية.

§ "تكس الغرفة": فعل مادي، لم يقع بعد. غير أنه لا بد أن يحدث تأسيساً على العلاقة بين الطرفين.

§ "فتحت صامتة": فعل مادي، لا يقع. الاحتجاج فعل مؤثر. إذا وقع، لكنه يبقى هنا مجرد صوت داخلي غير مسموع.

§ "الغرفة نظيفة": كينونة، حالة، تقرير. هكذا ترى الخادمة الغرفة. وعلى هذا الأساس تستنتج ما يلي.

§ "هذا مجرد عذر": كينونة، استنتاج. لما سبق، وربما لسبق عهدها بمسئدتها. وإلا فلماذا اليقين والقصر؟

§ "ينطلع إلى جسمها": فعل ذهني، إدراك، استنتاج أو ملاحظة. لما سبق، وربما لسبق عهدها بمسئدتها.

§ "تفتح النافذة": فعل مادي، يقع (ثبوت). هذه لحظة مهمة، وفعل مادي مؤثر إيجابي مثبت.

§ "يخرج السيد": فعل مادي، يقع (ثبوت). فعل آخر مادي إيجابي يتيح الفرصة لشئ من الحرية.

§ "تصفح الهواء": فعل مادي، يقع (ثبوت). لحظة انطلاق إيجابية. هي التي تصفح الهواء، على مضى أنها تملك زمام الفعل.

§ "يستقبلها بضحكة عذبة": سلوكي، يقع (ثبوت). رد فعل إيجابي وراء انطلاقها وتواصلها.

§ "تطيرين": فعل مادي، لا يقع. هذه دعوة من الطفل تقبلها الخادمة على الفور.

§ "تطير": فعل مادي، لا يقع. قبول الدعوة لا يضيئ أنها الآن تطير.

§ "ياخذها إلى مكان": فعل مادي، يقع (ثبوت). فعل مادي مؤثر وإيجابي يقع على الخادمة بحض لرائحتها.

§ "ترهو فيه الألوان": كينونة، حقيقة؛ "تومض": مادي، يقع (ثبوت)؛ "تحدث تعكست": مادي، يقع (ثبوت)؛ "الماء نقي وشفاف": كينونة، حقيقة. تتلق الطبيعة في حالاتها وحركاتها تعبيراً عن لحظة الاتعاق والتحرر.

§ "النساء تستحم": مادي، يقع (ثبوت)؛ "الرجال يقطفون ثمر الأشجار": مادي، يقع (ثبوت). ويتناغم البشر مع الطبيعة. ربما يوحى الفعلان "تستحم" و"يقطفون" بتبعية

نداء الشهوة ومن ثم التجدد؛ "الأطفال يرحلون على الضرب": مادي وذهني. يقع (ثبوت).

§ "تمل طفلاً": لفظي، يقع (ثبوت). المرح غريب عليها، من هنا وجب التساؤل. لها طفلة أكثر من الأطفال في وعيها بالمرح والانطلاق.

§ "تلهو منذ وقت طويل": مادي وسلوكي، يقع (ثبوت)؛ ألا تشعر بجوع؟ ذهني، يستلهم. افترض. هذه هي حسبتها: إذا طال وقت اللهو، لا بد من جوع. لكن حسبة الطفل مختلفة، لأن اللهو والمرح إشباع من نوع غير الذي لفنه هي.

§ "يضحك الطفل": سلوكي، يقع (ثبوت)؛ "عم تتحدثين": لفظي، يقع (ثبوت). الاختلاف في الوعي بالجوع والنصب هو الذي يثير الغربة والسؤال.

§ "تقول لـ": لفظي، يقع (ثبوت)؛ "موف تعرض": صيرورة؛ "فأ لم تكل": مادي، سلوكي.

§ "بهز الطفل رأسه": مادي، يقع (ثبوت).

§ "كنت جعاً": كينونة، ذهني، حقيقة. "لم امض قط": صيرورة، حقيقة.

§ "تقول": لفظي، يقع (ثبوت).

§ "يضحك عالياً": سلوكي، يقع (ثبوت).

§ "تسأل": لفظي، يقع (ثبوت). في لحظة الاتصال يصبح التساؤل نوعاً من التعرّف في العالم الذي لم تلافه الخامة.

§ "لماذا تفتح فمك هكذا": مادي، يقع (ثبوت). السؤال عن شيء ربما تبدو في نظر غيرها بديهيات وأموراً غريزية.

§ "تطلق هذا الصوت الغريب": لفظي، يقع (ثبوت). ليس هذا الصوت موقوفاً لدى الخامة.

§ "يجيبها بدهشة": لفظي، يقع (ثبوت). لكن الطفل يبقى على تواصله. ويجب عن مؤلفها.

§ "أنا فضحك": سلوكي، يقع (ثبوت). ربما لم يجب الطفل عن سؤال كهذا من قبل، ومن هنا تأتي الدهشة.

§ "ثم يجري بعيدا عنها": مادي، يقع (ثبوت). يعود الطفل إلى علمه. لأن علم الخادمة يبدو ضيقا عليه، أو لأن لكل منهما خطته وحيته.

§ "تحاول أن تفعل مثله": مادي، لا يقع. المحاولة لا تضي الفعل. ولكنها فضل من علمه.

§ "تفتح فمها": مادي، يقع (ثبوت). يبدو أنها لم تعرف الضحك من قبل. وها هي تحاول أن تتعلمه.

§ "تدفع صوتا مزرقا من صدرها": مادي، يقع. فعل إيجابي، مع ما في الصوت من ألم ومعاناة.

§ "ماذا تفطين": مادي، يقع (ثبوت). حذف واستكسر. لا استفهام.

§ "تطلق الانفذة بسرعة": مادي، يقع (ثبوت). عودة إلى سجن القهر. ونهاية لحظة التحرر. فعل الإغلاق ينهي ما بدأ عندما فتحت الانفذة.

§ "كان السيد يتأمل ظهرها": ذهني، يقع (ثبوت). يتأمل جمدها. لا يتأملها هي. أي يتأملها شيئا أو موضوعا، لا بشرا.

§ "تبتحين كالكلبة": لفظي، يقع. (ثبوت) براك. هكذا يراها سيدها وهذا هو رد فعله تجاه لحظة انطلاقها، وهو يختلف تماما عن رد فعل الطفل والطبيعة. وكان الطفولة والطبيعة هما ما تبقى لها من لحظات بهجة وانطلاق.

لم تكن غاية هاليداي مجرد تصنيف الأفعال وما يرتبط بها من فور. بل الانتقال من ذلك إلى فهم ما تفعل اللغة وهي تصور الواقع وتؤمّن علاقات مع الآخرين ومع نفسها. حين تنتبج الأفعال وما يحيط بها من ظروف وأحوال في قصة الانفذة. نقف على علاقات القوة والقهر التي تصل، بل تلتصق، بين السيد والخادمة التي حولها القهر كقنا بداتيا لم يعرف الضحك بعد.

تتجلى علاقة القهر في هذه القصة القصيرة من بدايتها - "ولمهرها السيد" ... "ينتطلع في جسمها" - ولا تكتفي البداية بالإخبار عن محتوى الفعل. بل تشير كذلك إلى لفظة التي ينتمي إليها، وهي لفظة الأمر Directives. والأمر في أصل دلالاته يقصد به طلب فعل الشيء على جهة الاستعلاء، كما لورد رجب (٢٠٠٩) في تناوله لغة طفلة نخرين. وهو في السياق الراهن استعلاء السيد على الخادمة. فصارُ الفعل أو الشرء، فطاعة مرغمة، واحتجاج "صامت".

هكذا تقع الخادمة تحت قهر السيد من خلال أمره إياها، دونما حاجة حقيقية لما يلزمها به. ومن خلال استلاب عنيبه جسمها. لا تستطيع الخادمة المطلوبة على أمرها أن تفعل شيئا من تلقاء نفسها - "تفتح النافذة" - أو أن تخرج من حيز قهرها إلا عند خروج السيد. ما يتبع ذلك مساحة مؤقتة من الحرية - "تصفح الهواء". "يستقبلها بضحكة عذبة". يدعوها الطفل إلى الطيران، فتقبل. ويأخذها إلى مكان "ترهو فيه الألوان". فتذهب، لتشاهد تالقي الطبيعة في حالاتها وحركاتها تعبيرا عن لحظة الانسحاق والتحرر. في فضاء التحرر "النساء تستحم". و"رجال يقطفون ثمرات الأشجار". و"الأطفال يمرحون على العشب"، فيما يشي بالتجند والبهجة. تنتقل الخادمة إلى فضاء وجودي ودلالي جديد تستطيع فيه التنازل. وتعرف مضى الضحك. ذلك السلوك الغريب عليها، وتكتشف أن البهجة تُشبع. وتفي المرض.

حين تحاول البهجة، لا تجد إلا قيود سيدها من جديد. يستنكر محاولتها الضحك ويختزل لحظة الحرية، بين فتحها النافذة من تلقاء نفسها وإغلاقها إياها تحت سطوة الخوف. ويعود بها إلى الاستلاب: "كان السيد يتأمل ظهرها" - يتأملها شيئا لا بشرا - ولا يجد في الصوت الذي تخرجه إلا نباحا كنباح "كلبة". هكذا يصف السيد صوت الخادمة في صيغة تقريرية مستهجنة وتشبيه يجردها من أقيمتها - "تتبعين كالكلبة". وهكذا تُعيد لفظة إبتاج الواقع، واقع القهر والسلطة، وهي سلطة مركبة متقدمة. تجمع بين السلطة للذكورية وسلطة السيد على الخادمة. من خلال أنواع الأفعال وثبوتها ونفيها. وبنية الجملة من حيث من يفعل ومن يقع عليه الفعل.

ولتقنا نلاحظ فيما سبق بعض ما يقترن بالتحليل الوظيفي. وفق نسق هاليداي. فسي
سابق عربي من صعوبات وإشكاليات، فليس كل ما يندفع في اللغة الإنجليزية فعل
في لغة كالعربية. على سبيل المثال، في جملة "الغرفة نظيفة" في تمسختها الإنجليزية،
هناك فعل هو "تكون" is، أما في اللغة العربية فهي ممتد إليه وممتد. موضوع
ومحمول. لو مبتدا وخبر. ما يندرج تحت لفعال القلوب، والتصيير، والمقاربة،
والشروع، واليقين، والرجحان، هو من قبيل الأفعال الناسخة. أما الأفعال الأساسية
في الجملة العربية، فلا يبدو أن لها تصنيفا يشبه تصنيف هاليداي في لفعال ملاية،
وذهنية، وسلوكية، وهكذا. من ناحية أخرى لا يتنمى تصنيف كل فعل في فئة واحدة
من الأفعال حتى في اللغة الإنجليزية.

في يوم المقاومة والتحرير، في يوم الانتصار التاريخي العظيم والكبير، نلتقي هنا في عبق المنطقة التي استعادت الوطن واستعادت الوطن، في نجواء ربيعين أبي عبد الله سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليهما السلام. لنؤكد من جديد مغولته وخطه، لنثبت من جديد أن الدم هنا ينتصر على السيف، وأن الدم هنا يهر السيف وهزمه، وأن الدم هنا حطم كل قيد، وأن الدم هنا أفل كل طاغية ومستكبر. (٢)

نلتقي هنا لنحتفل بالنصر الذي صنعته الشهادة، وصنعه النماء. عندما نتحدث عن هذا النصر، عن تحرير الأرض، عن حرية الإنسان، عن كرامة الوطن، عن عزة الأمة.. يجب أن نتذكر كل أولئك الذين ساهموا في صنع هذا النصر. قبل كل شيء وبعد كل شيء، نحن عباد الله نعلن أمام العالم كله أن هذا النصر من الله سبحانه وتعالى، هو الذي هدانا إلى طريق المقاومة، هو الذي تلقا سواه المسيل، هو الذي ثبت قلوبنا منذ سنوات طويلة، هو الذي ملأ قلوبنا طمأنينة وطمأنينة عشقا للشهادة وهو الذي ألقى في قلوب أعدائنا الرعب. هو الذي رمى وهو الذي أصاب، هو الذي نمر الموضع، هو الذي هدم الحصون، هو الذي قتل الجبابرة. وهو الذي صنع هذا النصر. الله، سبحانه وتعالى، الذي نشكره ونحمده ونسبحه ونستغفره ونسب إليه ونخضع له ونعده أن يتم لنا نصرنا بأن يحرر كل الأرض وكل الأخوة وكل هذه الأمة المظنة والمظلومة. (٣)

لقد فرضتم على العدو شكل الاسحاب ووقته، واسقطتم لغم العدو في ميليشيا لظنون لحد، هو كان يراهن على أن تتمترس هذه الميليشيا في موقعها وتطلق النار، ثم يدخل موقف الأمم المتحدة للتفاوض مع الدولة، وفي مقابل إخلاء المواقع يحصل

(١) الجماعة في مواجهة عدو مشترك، وتأكيد لتمام المنكلم إلى جمهور المسلمين.

(٢) صراع الدم والسيف، صراع من بشر ومن لا بشر، الإنسان والجماد، إلا فرين قتداء والتضحية والآخر فرين لبطش والإعداء.

(٣) النصر من عند الله، فنبش النصر الفرقي من خلال الأساليب والمفردات، لا تقتصر وظيفة استدعاء النصر الفرقي على التبرك، بل تتجاوز إلى استدعاء زماته وأعدائه، بحيث تصبح الحرب بين حزب الله وعدوه غزوة بدر جديدة.

الصلاء المجرمون والخونة على العفو. هذا الأمر انتهى أيضاً. انتهى بأقل صورة ممكنة لهؤلاء الصلاء الذين شاهدتم صورهم. صور إزلالهم عند بوابات فلسطين المحتلة. وشاهدتم كيف تخلى عنهم هذا العدو. (٧)

لما التهديد والوعيد الإسرائيلي فلا تخاف منه اليوم... هم الخائفون على امتداد هذه الحدود وهذا الشريط. لقد خافوا من بعض النساء والأطفال الذين يقفون على الحاجز الحدودي... يخافون من حجر يرمى عليهم (٨) ... كنتم الآن هنا بنت جبيل آمنون سداء. وهم على امتداد مستعمرات شمال فلسطين المحتلة خائفون ومرتبون أمام المستقبل المجهول... لقد انتهى الزمن الذي كنا نخاف فيه من التهويل والتهديد الإسرائيلي. وهو يعرف أن الزمن الذي كانت فيه تستطيع طفرته سماحاً قد ولى. وأن الزمن الذي كانت تستطيع دباباته لرضنا قد ولى. وأن الزمن الذي كانت تستطيع فيه زورقه مياها الإقليمية قد ولى، وإن أي اعتداء على لبنان لن يقابل بشكوى إلى مجلس الأمن (من مجلس الأمن هذا؟! ولا بالموع... لن يقبل إلا بالمقومة.. "إسرائيل" إذا اعتك على لبنان ستدفع إثمها غالية. (٩)

قول لكم يا شعبنا في فلسطين: إن إسرائيل هذه التي تملك أسلحة نووية وقوى سلاح جو في المنطقة، والله هي لوهم من بيت العنكبوت! لكن إذا كنتم تريدون الاعتماد على الاتحاد السوفياتي كما كان في السابق فلن تصلوا إلى نتيجة، إذا كنتم تنتظرون المجتمع الدولي فلن تصلوا إلى نتيجة، إذا كنتم تراضون على المعدلات فلن تصلوا إلى نتيجة. (١٠)

(٧) "كنتم"، "لا نحن" ولا "أنا". المتحدث هو القاعل الذي يتحدث للنساء. تواضع حسن نصر الله وزيما نكلاه في اظهار هذا التواضع من خلال الاحتفاء بالمستمع. لا بدات. وتهيون من قدر العدو الآخر. كنتم المنتصرون الآمنون. وهم الخائفون.

(٨) الآخر الخلف.

(٩) كنتم وهم. الأمن والخوف: من الماضي إلى الحاضر - من التهديد إلى الخوف (سريز). ومن الخوف إلى ثقة (حزب الله) - إلى المستقبل - حزب الله يتوعد ويهدد.

(١٠) الآخر الضعيف. والآخر الذي لا يرجى منه خير أو عون.

يا شعب فلسطين: إن تنصروا الله ونصركم ويثبت أقدامكم. يا شعب فلسطين: إن
ينصركم الله فلا غالب لكم. (11)

وقول لشعبنا العربية والإسلامية: أيتها الأمة العربية، يا علمنا العربي والإسلامي،
الخزي والهزيمة والفشل والعار من الماضي. هذا الانتصار يؤسس لحقبة تاريخية
جديدة ويقلل الباب على حقبة تاريخية ماضية (12).. ضحوا قبل أن يسلحوا
بالأمل، ضحوا لو هن جاتبا واشحنوا الهمم والعزيم (13). انسى اليوم، باسم كل
الشهداء في لبنان، باسم كل المظلومين في لبنان، أطلاب الحكومات العربية، بالحد
الأمنى، أن توقف التطبيع مع إسرائيل، أن تقطع علاقتها بـ "إسرائيل"، أن تفرض
موقفها وفرارها على إسرائيل، وأطلاب الشعوب العربية بأن تقف إلى جانب فلسطين
وشعب فلسطين، وأن ترفض أي شكل من أشكال التطبيع مع هذا العدو (14).. إسرائيل
الكبرى هزمتها المقاومة، إسرائيل العظمى تهزمها المقاومة. ونجد تشكيلها المهمة
مقاومة التطبيع. (15)

وكل نصر وكل عيد ولنتم بخير
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

-
- (11) اقتبس من القرآن الكريم، وإسقاط الموقف الذي نزلت فيه الآية على نقطة فراهة، بما في ذلك من
تصنيف ضمنى في فئة تقتل في سبيل الله والآخرى كفرًا.
(12) لحظة لفارقة بين حقبين.
(13) سمعوت دقة تجعل من المنجذبات فردية تلحق ولسحة تحمل أو تتخذ.
(14) لوفوع في شرك التعريف المستورد من الغرب.
(15) اعادة تعريف المقاومة.

تفقيب

هذا خطاب يتكى على النص القرآني والتراث الإسلامي. لتحقيق قدر كبير من بلاغته وتوصيل رسالته. من خلال الأكتباس الصريح، والأسلبة. أي استلهم أسلوب قفران الكريم، وتركيبه، ومفرداته، واستلهم المشاهد القرآنية التي تصف موجهات المؤمنين مع غير المؤمنين، وكذا استلهم الشخصيات التي تنتمي إلى هذين المصكرين، من وجهة نظر المتكلم - الإمام الحسين في مواجهة فرعون وهامان. ليس من الضرورة إلقاء كل طرائق السبك والحبك في الخطاب، فهما من موقماته التي لا تستعصي على متكلم بلرع مثل نصر الله، أصبح حضوره "بلاغياً" بارزاً، وحقق شعبية جارفة من مبرراتها قدراته الخطابية ووعيه القوي. على سبيل التمثيل لا الحصر ما نجد من توازن تركيبى وتكرار في: "لَنْ أَزْمَنَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ تَسْتَبِيحَ طَقْرَتِهِ سَاعِظاً قَدْ وَلِيَّ"، و"لَنْ أَزْمَنَ الَّذِي كُنْتُ تَسْتَبِيحَ بَيْبَقِهِ رَضِناً قَدْ وَلِيَّ"، و"لَنْ أَزْمَنَ الَّذِي كُنْتُ تَسْتَبِيحَ فِيهِ زَوَارِقَهُ مِيَاهِنَا الْإِكْلِيمِيَّةَ قَدْ وَلِيَّ". في هذه التركيب اغتصاب واحتلال وانتهاك يقع على "سمعنا" (سماء المتكلم ومن ينتمي إليه) و"رضناً" و"مياهنا" على يد "طائراتنا" (طائرات الطوف) و"نبهاتنا" و"زورقنا".

وفي الخطاب ما في جملة الخطابة السياسية من توظيف الاستعارة. على سبيل التمثيل ترد استعارات "الدم ... ينتصر على السيوف"، و"الدم ... حطم كل فرد"، و"صنعتنا الشهادة"، و"صنعتنا الدماء"، و"تحرير الأرض"، و"كرامة الوطن"، و"عزة الأمة"، و"ضعوا لباس جثتها وتسليحوا بالأمل"، و"ضعوا ألوان جثتها ونشحنوا الهمم والعزائم". يبدو أن الاستعارة المحورية هنا هي استعارة الدم والسيوف، ويرد التفريق بينهما في هلمش على الخطاب. ولا بد أن يقع التعاطف. على الأقل تعاطف الأخيار الطيبين. مع الدماء التي تسيل، لا مع السيوف التي تقتل.

وفي الخطاب موجهة بين مصكرين - هما بلفظة جورج بوش مصكر "الخير" ومصكر "الشر"، غير أن الشرار بوش ليمسوا هم الشرار نصر الله. ولا أخياره لأخياره

- بين المتكلم، ولخوته وأخواته المستمعين، والمناصرين، والشهداء، والمستضعفين، وأنباء فلسطين، والإمام الحسين، وما يرتبط به من قيمة الاستشهاد والتنضحية والدماء ("نحن" في المربع الأيديولوجي للخطاب)، من ناحية، وبين فرعون، وهامان، وإسراقيل، ومن يستأدها، وعلمة المفسدين، والظفافة، والمتكبرين، وما يحملون في وجه المؤمنين من سيوف، ومعهم الغلاء للمجرمون والخونة ("هم/ الآخر العدو" في المربع الأيديولوجي للخطاب)، من الناحية الأخرى.

تتحذّر بؤرة الخطاب من حيث زمانه ومكانه في "لنتقي هنا" (مكان) "في يوم المقاومة والتحرير، في يوم الانتصار التاريخي العظيم والكبير" (زمن)، "ولنتقي هنا في عسق المنطقة التي استعانت الوطن واستعلاها لوطن" (مكان)، "وفي لجواء ريعين أبي عبد الله سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليهما السلام" (زمن). من هذه البؤرة يشير الخطاب إلى ماضٍ قريب، ماضٍ من التهديد والعدوان والاحتلال الإسرائيلي - "لزمَن الذي كُتبت تستبيح دبابلته أرضنا قد ولي، و... لزمَن الذي كُتبت تستبيح فيه زورقه مياها الإقليمية قد ولي"، "والخزي والهزيمة والفذل والعار من الماضي. هذا الانتصار يؤسس لحقبة تاريخية جديدة ويقفل الباب على حقبة تاريخية ماضية" - وماضٍ بعيد، ماضٍ الفزوات الإسلامية الكبرى والإمام الحسين. كما يشير الخطاب إلى أماكن أخرى - "ولسقطتم لغم العدو في ميليشيا قطون لحد"، "و... صور لذلّهم عند بوابت فلسطين المحتلة"، "وهم الخائفون على امتداد هذه الحدود"، "وهم على امتداد مستعمرات شمال فلسطين المحتلة خائفون"، وإلى المجتمع الدولي والاتحاد السوفيتي الذي لا يتكلم في فترة أيٍّ منهما على مساعدة فلسطين، وإلى الامتتين العربية والإسلامية، وما ينبغي عليهما، من وجهة نظر المتكلم، من ضرورة مقاومة التطبيع مع إسرائيل.

تتجاوز الإشارة معانها القريب هنا لتؤسس، من خلال الاستلهام والتهبّس، وربما الاقتداء كما في "لنؤكد من جديد مقولته وخطه، انتماءات وتكتلات تمتد عبر الزمان - من فرعون وهامان إلى إسرائيل، ومن غزوة بدر والإمام الحسين إلى حزب الله -

والمكان - لبنان وفلسطين والأمم العربية والإسلامية في مواجهة إسرائيل وأعوانها.

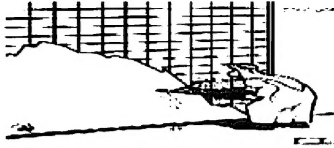
وفي الخطاب يمانُ بقضاء الله وقدره - قد يقول من لا يحب حصن نصر الله أنه يهجم بالإيمان. لو وسيلة بلاغية لتحقيق غايات تواصلية سياسية - ينسجم مع قنماء المتكلم وعقيدته. وينسجم مع جملة الاقتباسات القرآنية والأحاديث في التراث الإسلامي. ويتبدى، إضافة إلى ما سبق، في نسبة فعل النصر وما يرتبط به إلى الله تعالى. من خلال الفعل ذهنية، وتعابير مجازية يرد فيها ضمير يشير إلى لفظ الجلالة - "هو" - متبوعاً بجملة موصولة، للفاعل فيها هو هذا الضمير. وقد صار مستتراً، ومن يقع عليهم الفعل بالملب هم الأعداء، وعلى مصكر الإيمان بالإيجاب: "هذا النصر من الله سبحانه وتعالى، هو الذي هدانا إلى طريق المفقومة، هو الذي بَلَّغَنَا سواء السبيل، هو الذي ثَبَّتَ قُلُوبَنَا منذ سنوات طويلة، هو الذي مَلَأَ قُلُوبَنَا طمأنينة وخفضنا عشقاً للشهادة وهو الذي أَلْقَى فِي قُلُوبِ أَعْدَانَا الرعب. هو الذي رعى وهو الذي فَصَّلَ هو الذي بَيَّنَّ المواقع، هو الذي هَدَى الحصون، هو الذي قَلَّ الحصار، وهو الذي صَنَعَ هذا النصر".

حين ينسب المتكلم لفعلاً إيجابية إلى البشر، فإنه ينسبها إلى الحضور: "انتم فرضتم على العدو شكل الأسحار ووقته، وأسقطتم نعم العدو". هنا هو فيطلب. ويشعر، ويعتقد، وفي هذا تكريم لمن شاركوا، من "فرضوا" ومن "أسقطوا"، واستجلاب لمزيد من ولائهم وانتمائهم، وفيه كذلك إتيان للذات من جانب المتكلم. أما الآخرون فمنهم الصلاة والخونة (من يتواطؤون مع إسرائيل)، ومنهم من يحتاج نصيحة نصر الله (الأمم العربية والإسلامية وأبناء فلسطين)، ومنهم من يحتمى بترسانته العسكرية، وبيته فوهن من بيت الضعيف (إسرائيل)، ومنهم من لا يجب الاعتماد على دعوته أو عونه (الاتحاد السوفيتي والمجتمع الدولي)، ومنهم من يستحق المسخرة (مجلس الأمن - "من مجلس الأمن هذا؟!"). هذه اللفتة الأخيرة تشير على استحياء إلى سمة من سمات المتكلم الخطابية، وهي توظيف الفكاهة والمسخرة.

وهكذا، يبقى المتكلم على حضوره وتأثيره من خلال أفعاله النوعية البلاغية، أي من خلال ما يفعل بالكلمات والاحتباسات والإحالات، فيؤسس قصة بين مصكرين عبر الزمان والمكان، مصكرنا (الخير والدم والمهاداة والإيمان والانتماء إلى الله)، ومصكرهم (الشر والسيف والعدوان والطفيلين ومعاداة الله عز وجل)، ويوظف الانتصار الذي تحقق للتمييز بين حقيقتين - من حقبة الخوف إلى حقبة الأمن والثقة عند حزب الله، ومن حقبة التهديد والاعتداء إلى حقبة الخوف في إسرائيل.

(٨)

نصوص بصرية



تجريد (المطومات في رسم بياني) ثم تجسيد (الرسم البياني في جسم الليل للمصمم)
(من الوطن السعودية، ٣ يوليو ٢٠٠٨).



إعلان على شبكة الإنترنت تتضار فيه الاستعارة اللغوية ("الحولج" اللغوية)
مع الاستعارة البصرية ("الجدار" الذي ينفهم).



في كل استعارة اندماج fusion بين عالمين أو فضاءين دلاليين. الاندماج في هذا النص بين
علم البشر - "موجلي" - وعلم الكائنات البحرية - الإخطبوط. ما ينتج عن الاندماج هو "رجل
بخطوط" أو "بخطوط بشري" (الخليج، ٥ يوليو ٢٠٠٨)